



فدوى طوقان

شعر وألزام

تأليف
عزيد الشيخ

الْإِسْلَامُ مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ

فَدَوَى طُوقَانُ

شبكة كتب الشيعة

شِعْرُ وَالتَّوَالِدِ



تَأَلَّفَ

غَرِيدُ الشَّيْخِ

shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٢٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فناكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢ - ٦٠٢١٢٣/٩٦١١/٠٠

الإهداء

إلى من بسيرته علّمنا حب القراءة والدرس . .
وبعطائه الذي لا يحدّ علمنا حب العطاء . .
إلى من الكتاب كلّ ما يعنيه في هذه الحياة
إلى والدي الحنون وكرّمى له أقدم
باكورة إنتاجي ، وأرجو أن تكون بداية العطاء الغزير . .

غريد الشيخ

حياة الشاعرة

هناك بين المروج . . في حضن الطبيعة الخلابة ولدت فتاة صغيرة
حزينة . . رضعت الحزن منذ طفولتها . . قلب صغير تَفَتَّحَ متعطشاً إلى
الحب رغم صغره . . كان جافاً ظامئاً، ويسأل الحياة عن (دفقة من نبعة
حب).

تحبني؟ تاريخها عندي قديم
قبلك من سنين، من سنين
نشدتها، بحثت عنها في طفولتي
نشدتها إذ كنت طفلة حزينة -
مع الصغار
عطشى إلى محبة الكبار
وكنت أسمع النساء حول موقد -
الشتاء .

يُروينَ قصّة الأمير إذ أحبّ -
بنت جاره الفقير
أحبّها؟ . . وترعشُ الحروف في

كياني الصغير
إذن هناك حُبّ؟
هناك من يحبُّ، من تُحِبُّ!
وكان قلبي الحزين، قلبي الصغير -
ينطوي على جفافه، على ظمائه
ويسأل الحياة
عن دفقة من نبع حُبّ
وكانت الحياة
بخيلةً، بخيلةً، أواه ما
أقسى تَعَطُّش الصغار حين ينضب -
الْحُنُوُّ في الكبار، حين لا
يُسقى الصُّغار قطرةً من نبع حُبّ.

وبدأت فدوى حياة المراهقة.. ظهرت عاطفتها واضحة..
وقرأت قصص الحبّ جميعاً، فعرفت عروة الحزين بحبه، وعاشت
حبّ قيس وجميل.. أحبت حتى العذاب الذي شعر به هؤلاء
المحبون، وتمنت أن تعيش التجربة بفرحها وألمها..

وحين فتحت براعمي وأمرع الصَّبَى^(١)
وضُمَّخَ الجوّاء بالعبير
عرفتها في شعر (عروة) الحزين
وعشتها في شعر «قيس» في -

(١) ديوان فدوى طوقان - دار العودة.. ص ٤٥٣ (تاريخ كلمة).

رؤى «جميل»
كم هزّني تَدَقُّ الشُّعور في قلوبهم
كم عشت حُبَّهم، حنينهم، عذابهم
كم قال لي قلبي الحزين
«ما أسعد الأحبابَ رغمَ ما يكابدون
«كم يغتني الإنسان حين يلتقي
«هناك من يحبه، كم يغتني»
ولم يكن هناك من يحبُّني ..

فدوى طوقان .. الشاعرة الأدبية هي ابنة عائلة عريقة .. ولدت
في نابلس، وعاشت عمرها ضمن تقاليد خاصة بأسرتها .. نفس فدوى
كانت تتوق إلى الحرية لتمارس حقها الطبيعي في الحب والحياة ..
فانصرفت إلى الشعر لتعبر عن طريقه عن كل خلجات نفسها الحزينة .

كتبت عن آلامها وأحلامها، عن حبها الكبير، عن نفسها الظامئة
إلى الحرية .. (اكتفت بالشعر لتعبر عن مشاعرها الحقيقية والطبيعية في
نفس الوقت، حبست شخصيتها الاجتماعية في إطار التقاليد القديمة
الموروثة، لقد انقسمت شخصيتها إلى شخصيتين: شخصية حقيقية
عبرت عنها وعن آلامها وأحلامها في شعرها، هذه الشخصية هي
باصطلاحات علم النفس هي الأنا. وشخصية أخرى كانت رقيباً على
الشخصية الأخرى ومصدراً للضغط عليها، وهذه الشخصية هي «الأنا
الأعلى» وقد استسلمت فدوى في حياتها الاجتماعية وسلوكها
للشخصية الثانية بينما استسلمت في شعرها للشخصية الأولى .. وقد
ظلّ هذا الانقسام قائماً في حياتها حتى اليوم . فهي تتحرر عاطفياً عندما

تكتب شعرها الجميل الصادق وتتقيد اجتماعياً عندما تتصرف مع الناس
أو تواجه الحياة الواقعية»^(١) .

وفي هذه العائلة كان إبراهيم طوقان الأب الروحي لفدوى - وهو
الأخ الأكبر لها - هو الذي رباها، وأخذ بيدها لتكتب الشعر وتعبر به عن
حريتها . . إنها ترى في حنان الأخ المثل الأعلى للسلوك الرجولي . .
فهو يبذل لها من نفسه ورعايته دون أن ينتظر منها مقابلاً . . فحنانه هو
الأسمى وحبّه هو الحبّ الوحيد الحقيقي في حياتها . . ها هي ذي
تتحدث في قصيدتها «تاريخ كلمة» :

وعاد من غربته أخي الكبير عاد -
إبراهيم، كان قلبه الرحيم، خيراً كبير
وفيض حبه غزير
ولفني أخي وضمني إلى جناحه
هنا استقيت الحبّ وارتويت
هنا استردّدت ذاتي التي تحطمت
بأيدي الآخرين
بناءها، هنا اكتشفتُ من أنا
عرفت معنى أن أكون.

ومات إبراهيم طوقان . . مات المرشد الروحي لفدوى، الأخ
المحبّ الرحوم . . مات المناضل البطل الذي كان على قِصرِ حياته من

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ١٤٦ -
١٤٧ .

أوعى الشبان الفلسطينيين وأكثرهم قدرة على التنبؤ بهول المآل،
وأبلغهم حرصاً على التضامن الفلسطيني والعربي . . ولا تزال تذكره كلما
حلّت بالوطن مصيبة . . لقد حلمت به في الأسابيع العصيبة التي رافقت
أزمة السويس فناجته تقول :

أخي أرايت القضية كيف انتهت أرايت المصير الرهيب؟

* * *

الحب عند فدوى طوقان

رغم أن فدوى طوقان عاشت الحرمان، فإنها كانت تحبُّ الحبَّ لذاته، وتنكر على نفسها أن لا تحبَّ. ونجد هذا الحب هو المتنفس الوحيد لفدوى الذي يشعرها أنها ما زالت تعيش، فهي تستنكر على نفسها أن تعيش ولو لفترة قصيرة بدون حبّ.. فالحب هو الهواء الذي تتنفسه، والماء الذي لا غنى لها عنه... ودائماً الحبيب بالنسبة لها هو شقيق روحها، وكثيراً ما نجده يشبهها في فهمه لهذه العواطف الكبيرة التي تحملها.. فهي عواطف مثالية حاملة.. تدفع بالشاعرة لكتابة الشعر لأنه الطريق الوحيد. وتبدع فدوى في شعرها فهو ابن لهذه العلاقة المحببة إلى قلبها، وابنٌ شرعي لهذا الحب الذي يعايشها في فترات حياتها..

وفي كل قصة حبّ جديدة لفدوى نجد القصائد الرائعة النابعة من قلبها، ونجد رسائل متبادلة بينها وبين الحبيب.. رسائل تحمل في طياتها أسمى معاني الحب وما تعانيه مع الحبيب من مشاكل ومشاكل وهموم وآلام..

إبراهيم نجا.. شاعر مصري كان له في حياة فدوى طوقان أسطر

كتبها القدر وحفظتها رسائلهما المشتركة . . وكان لهذا الحبّ أروع الأثر
في شعرها وأدبها . . وفشل هذا الحب وعدم استمراره، كان للأسباب
الاجتماعية التي طالما ذكرتها فدوى فالتقاليد عند عائلتها أن لا تتزوج
الفتاة إلا من الأسرة نفسها وإذا لم تتزوج من الأسرة فمن الضروري أن
تتزوج من نفس البلد: فلسطين . وإذا لم يكن الزوج من نفس البلد أو
من نفس المستوى الاجتماعي فعلى الفتاة أن تظل حبيسة بيتها بلا زواج
إلى الأبد.

في إحدى قصائده إلى فدوى طوقان يقول الشاعر المصري
«إبراهيم نجا» «بلا أمل» :

ولست بناسٍ إذ بعثتِ رسالةً
إليّ بأمرٍ منٍ وصالك عاجلٍ
فجنّ خيالي باللقاء وسحره
وصوّر لي أنني سأحظى بنائلٍ
وأنتِ قد وافيتني في خميلةٍ
عليها نسيج من ضياء الأصائلِ
فأمسكتُ كفي بين كفيك ساعة
فأسكر روحينا عناقُ الأناملِ
وغنيتني شعر الهوى، فكأنني
ذهلتُ عن الدنيا ولستُ بذاهلٍ
وأنا أقمنا وحدنا طول عمرنا
فأصبحتِ لي وحدي برغم الحوائل
ولكن حظي كان حظي فأخطأت

خطاكِ مقامي بين تلك المنازل
وعشنا على الأوهام تجمع شملنا
رسائل حبٍّ يا لها من رسائل
وما في يدينا غير أوهام موعدٍ
وأحلامٍ لقيا كالورود الذوايل
فلا تحسبي أنني سأنساك لحظةً
فإنك شغلي دون كلِّ الشواغل
سأحيا على حُبِّك ما دمتُ باقياً
وإن كنتُ أدري أن حُبِّك قاتلي^(١)

وهكذا يرسم الشاعر صورة اللقاء الفاشل وصورة لعواطفه المثالية
الحالمة . .

وبعد فترة قصيرة تتعرض علاقتهما العاطفية لأزمة، فظروف كل
منهما لا تسمح له بالاستمرار ويكتب لها معاتباً، وتجييه في إحدى
رسائلها:

«أنا ما أسأت الظنَّ بك، لا ولا أنكرت شيئاً مما قلته في
رسالتك، وماذا عساي أن أنكر؟. أأنكر عطف روحك على روحي؟ أو
حديثك الصادر من أعماق قلبك؟

لا وربِّك، ولكنها القيود تكبل روحي والتقاليد تكسر جناحي،
والسدود تعترض دروبي. وهذه كلها تضيق عليّ، وتحول بيني وبين أن

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ١٤٨ .

أَتُخَذَ لِنَفْسِي نَجِيًّا أَفْزَعَ إِلَيْهِ مِنْ قَسْوَةِ الْحَيَاةِ، وَأَسْتُضِيءُ بِضِيَائِهِ فِي هَذَا الظُّلَامِ الَّذِي يَكْتَنِفُ نَفْسِي، وَلَا يَدَّ لِي وَلَا حِيلَةَ.. وَأَنْتَ حِينَ نَادَتْنِي رُوحَكَ، وَنَاجَانِي قَلْبَكَ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي أَنَّكَ إِنَّمَا تَدْعُو كَسِيحَةَ أُسِيرَةٍ مَهِيضَةِ الْجَنَاحِ، وَكُنْتَ أَظَنَّ أَنَّ فِي سَكُوتِي الْخَيْرَ لِي وَلَكَ»^(١).

يَا لَهَا مِنْ رِسَالَةٍ تَوْضَحُ وَبِأَسْطَرٍ بَسِيطَةٍ مَعَانَاةٍ كَامِلَةٍ لِحَيَاةِ الشَّاعِرَةِ.. إِنَّ الْحَبَّ يَنَادِيهَا وَلَكِنْ الْقَيُودُ تَكْبِلُهَا وَتَكْسِرُ جَنَاحِيهَا فَهِيَ تَفْضِلُ الْهَرَبَ بِنَفْسِهَا وَبِحُبِّهَا مِنْ أَنْ تَسْتَمِرَّ بِلَا أَمَلٍ. إِنَّهَا فِي النِّهَايَةِ نُمُودَجٍ حَيٍّ لِبَنَاتِ جِيلِهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبَيْثَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْآخَرَى.. لَقَدْ ضَحَّتْ فَدَوَى بِحُبِّهَا الْمَرَّةَ تَلَوُ الْآخَرَى، وَرَفَضَتْ كُلَّ مَا تَلْقِيهِ التَّقَالِيدُ فِي طَرِيقِهَا احْتِرَامًا لِإِنْسَانِيَّتِهَا.

وَفِي رِسَالَةٍ أُخْرَى تَقُولُ:

«مَاذَا أَقُولُ؟ أَنَا خَائِفَةٌ، إِنَّ قَلْبِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ فِي صَدْرِي مِمَّا يَمْلُؤُهُ، أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ بِكُلِّ هَذَا الْعَبَاءِ.. فَخُذْ أَنْتَ بِيَدِي.. أَنَا شُذُّكَ اللَّهُ، وَأَتَمْنَى عَلَى مَقَاوِمَةِ هَذِهِ الْعَوَاطِفِ الْجَامِحَةِ، أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَقْطَعَ رِسَائِلَكَ عَنِّي.. لَا، لَا أُرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيَّ بَعْدَ الْيَوْمِ، كُنْ عَوْنِي عَلَى هَذَا الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ، إِنِّي أَضِيقُ بِهِ وَلَا أَطِيقُ لَهُ احْتِمَالًا، فَوَدَاعًا، بَرِّغْمَ قَلْبِي أَقُولُهَا، إِنَّهَا كَلِمَةٌ أَجْدُ فِيهَا مَذَاقَ الْمَوْتِ، سَأَذْكُرُكَ مَا عَشْتُ، سَيَحْنُ إِلَيْكَ قَلْبِي مَا دَامَ فِي قَلْبِي نَسْمَةُ حَيَاةٍ»^(٢).

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ١٥٢.

وهكذا انتهت هذه القصة العاطفية بين فدوى طوقان والشاعر إبراهيم نجا.. بعد أن عانى كلاهما خلالها من المشاكل المتعددة.. فالحب المثالي والعاطفة العنيفة قد حكم عليها بالفشل لأن الواقع والقيود تهشم كل ما هو عاطفي وجميل في حياتنا..

وأثمرت هذه القصة بعضاً من أروع قصائد فدوى طوقان ورسائل محمّلةً بالحب والإلهام.

وكل قصيدة من قصائد فدوى طوقان ترتبط لديها بذكريات معينة وبشخص واحد تتوجه إليه بآثاء إياه حبها وأشواقها.. قصيدة (غيب النوى) التي كتبها عام ١٩٤٩ ووقعتها باسم «المطوّقة» تعبر عن عاطفة روحية عميقة التأثير في نفسها فهي على أثر علاقة لها مع شاعر مصري اشترك - متطوعاً - في بعض معارك فلسطين (١٩٤٨ - ١٩٤٩) والتقى خلالها بالشاعرة وكان بينهما حب روحي عميق، ثم افترقا بعودة الشاعر إلى مصر.. كتبت فدوى طوقان بعض القصائد على أثر الفراق ومن بينها هذه القصيدة:

غيب النوى

مضيتَ؟ إلى أين؟ هلّا تعود
إليّ، إلى روحيّ اللائبِ
حنانك، ضقتُ، وضافت حياتي
بهذا الصدى المحرق اللاهبِ
بأشواقي العاتيات تزلزل صدري

في عنفها . الصاحب
حنانك قلبي يذوبُ وراءك
أواه من قلبي الذائب
تلفت ، وراع بقاياها تذوي
وتفنى مع الأمل الغارب^(١)

ثم تعاتب الحياة لأن الحبيب بعيد والقلب يعاني الوحدة
والأسى ..

وتذكر الماضي القريب البعيد . بالأمس كان الحبيب يمر على
هذا الدرب معها . . وكان الجنة كانت ملكاً لهما . .

| | |
|-----------------------------|---------------------------------------|
| مضيت؟ فيا لحنيني إليك | وواهاً لأمسي القريب البعيد |
| زمان أمرٌ بدرب الكروم | وللدرب نفح جنان الخلود . . |
| ويشرد طرفي ويطوي المدى | ولقياك غاية طرفي الشرود |
| وفي القلب نارٌ جموحُ الوقود | ينادي بها الشوق: يا نار زيدي |
| وطرفي قريرٌ بذاك الشرود | وقلبي سعيد بذاك الوقود ^(٢) |

إنها الذكريات فقط . . الذكريات الخوالي التي تثير لهيب
الحنين . . إنها تستجمعها فقط خوفاً عليها من أن تدفن تحت ركام
السنين . .

سل الدرب كم جئتُ غبّ النوى أجزّ الخطى في الغروب الحزين

(١) غبّ النوى - ديوان فدوى طوقان ص ٦٩ .

(٢) غبّ النوى - ديوان فدوى طوقان ص ٧٠ .

وحولي من الذكريات الخوالي طيوف تثير لهيب الحنين
أخاف تكرر عليها الليالي وتدفن تحت ركام السنين
فيسط قلبي جناحي هواه عليها ويحنو حنو الضنين
وأنت بأعماق روعي صلاة يُسَبِّحُ باسمك روعي الأمين^(١)

وتناديه مسترحمة إياه العودة ليطفئ ظمأ هذا القلب العطش . .
فهل كان هذا الحب إلّا سراياً تألق في صحراء حياتها ثم اختفى
فجأة؟ . .

ومن أكثر الفترات خصوبةً إنتاج لدى فدوى طوقان تلك الفترة
التي بدأت علاقتها بالناقد المصري الكبير أنور المعداوي، تلك العلاقة
التي وإن بدأت بتبادل الرسائل بينهما، رسائل غنية مميزة بأسلوبها
الجميل وبمواضيعها المثيرة . . ولكن انتهت بعلاقة حبّ مثالي عفيف
طاهر أغنى شعرها بأجمل القصائد وأكثرها واقعية وشفافية .

ورغم هذا فهي تعلم حق العلم أن حبّها سيبقى أسير الظروف التي
كانت تحياها، وسيكون شعرها تعبيراً عن كل فتيات جيلها:

كم فتاة رأت بشعري انتفاضات
رؤاها الحبيسة المكتومة
كان شعري مرآة كل فتاة
وأد الظلم روحها المحرومة^(٢)

(١) نفس القصيدة ص ٧٢ .

(٢) هو وهي - ديوان فدوى طوقان ص

لقد سجلت في هذه القصيدة قضية التقاليد الخائفة للحرية،
وتطلعها المستمرّ للتحرر من هذا السجن بالفرار إلى دنيا الطموح
والحب.

حياتي يا عباس حلم
مروع الأشباح
حلم أطبقت علي به جدران سجن
داج رهيب النواحي
عشت فيه مخنوقة الروح ظمأى
لندى الفجر، للشذى، للنور
الهواء الثقيل يكتم أنفاسي وقيدي
يغل دفق شعوري
كلما ضقت بالظلام وبالكبت
تلفتُ مثل طير مكبل
علَّ فجر الخلاص يلمح، لا شيء سوى الليل
ليل سجنني المقفل

* * *

وراء الجدران تصخب دنيا الانطلاقات
والحياة الجميلة
الحياة التي بملء اندفاعات خطاها
تسير نشوى غنية
لا تبالي بنا، تسير ولا تشي خطاها
مأساتنا الفردية..

وتعلمت كيف تختلط الثورة والبغض
في دم الظلم
وبأعماقي التربص يخفيه هدوئي
في صمته المسموم
أرقب اللحظة التي كم تطلعت إليها
في شوقي المكبوح
لحظة العتق والفرار إلى آفاق حريتي
ودنيا طموحي^(١)

ثم تتحدث الشاعرة عن الحب ووظيفته بالنسبة لها فهي لا تملك
من الحب إلا مشاعرها وأحاسيسها فهو المهرب الوحيد من سجنها . . .
وهي تستقي أكثر معانيها من حزنها وأساها، فأصبح الحزن هو ينبوع
الوحيد لكل أشعارها:

كان لي الحبُّ مهرباً أحتمي به
إليه أفر من مأساتي
كان دنيا في أفقها الرحب أسترجع حزيتي
أحقق ذاتي
يا لقلبي الموتور كم رنحته
نشوة الانتقام من جلادي
وأنا في مشاعر الحب غرقى
وهو خلف الأبواب بالمرصاد

(١) هو وهي - ديوان فدوى طوقان ص ٢٩٨ .

أبوسع السجون خنق الأحاسيس
وقتل الحياة في الأعماق؟
من يصد الشلال عن سيره الكاسح
عن اندفاعه الدَّفَاق؟.. (١)

في رسائل الأديب أنور المعداوي: نجد أنها مليئة بالحماس لها
ولفنها كما أنها مليئة باللهفة والحنان عليها.. وبدأ الحب وكانت
قصيدتها «في سفح عيبال» في نفس الفترة.. فكانت تعبيراً صادقاً عن
الأمل والتفاؤل الذي بدأت تحسه الشاعرة، الفرح بعلاقتها الجديدة:

ها أنا وحدي في ثنايا الجبل كأنني أسطورة تائهة

تهمسها الريح بإذن السفوح

ها أنا والفضاء حولي غزل والكون عشق، ورؤى وآلهة

وأنت في قلبي وعيني روح

يومئ لي نحو غدٍ أخضر

يغفو الشذا في دربه المزهر

ها أنا وحدي ومعني ضبوتي ترف في صدري بألفي جناح

وأنت سر في كياني استتر

وكلما هتفت من فرحتي أسأل: ما أنت؟ سمعت الرياح

تقول لي في مثل همس القدر

إنك يا حبي نشيد الخلود

وإنني صدك عبر الوجود.

(١) هو وهي - الديوان ص ٢٩٨.

وأرسل «الأوف» غناءً حنون يسيل من روحي وأوصالي
فتتشي «بالأوف» حتى السفوح
لحنٌ هوى، مرتعشٌ بالحنين سمعته يوماً «بعبال»..
إذ أنت في السفح غريب الجروح!

فبات وهو اليوم أغنيتي
يحملني إليك في وحدتي
هل نلتقي؟ أواه، هذي أنا سوسنة فتّح أكمامها
دفع الهوى والأمل المشرق
تلوي بها الريح، وتبقى هنا تستودع السفوح أحلامها
وأنت عطر مسكر يعبق
في دمها.. أواه هذي أنا
وحدي هنا في السفح وحدي هنا!!^(١)

ومن إحدى رسائله إليها وهي الرسالة الثالثة يقول المعداوي:
«ترى لو لم يحترق شعرك يا فدوى في وقدة العذاب، ترى هل كنت
تستطيعين أن تقدمي إلينا مثل هذا الشعر.. صدقيني أن الحياة قد
ظلمتك لتنصف الفن.. فنك هذا الذي يذكرني بالذهب، حين لا يصفو
معدنه إلا وهو معروض لوهج النار. ولكن أين هم الذين وهبوا نعمة
الشعور ليفرقوا بين الذهب والقصدير؟ لقد أنصفت الحياة فنك ولكنه
مظلوم من الأحياء»^(٢).

(١) في سفح عيبال ص ١١٦ ديوان فدوى طوقان.

(٢) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ٨٢.

ثم في رسالة أخرى وهي الرسالة العاشرة يقول: «أنت قديسة لأنك عرفت الحب على حقيقته المثلى، وهو مناجاة بريئة، وهو سبحات نقية، وهو عاطفة مقدسة، وهو دعاء تحول في قيثاره الشعر إلى غناء..»^(١).

وتنقطع رسائله فجأة دونما سبب ويسبب الانقطاع اضطراباً كبيراً لفدوى فماذا حصل حتى ينقطع اهتمامه بها وأين يذهب هذا الحنان فجأة.. وتبدأ حالة القلق عندها وترسل الرسائل لتعرف السبب ويجيئها جوابه:

«إن الموت هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفرق بيننا.. ترى هل طمأنتك هذه العبارة الأخيرة على أنني لن أقول لك بعد اليوم وداعاً؟... إنها كلمة قتلها بالأمس وشرحت لك دوافعها النفسية.. قتلها ولم أكن أعلم أنها ستحدث كل هذا الأثر في حياتك.. ولشد ما أتوق اليوم إلى لقائك لأعتذر إليك.. ولأقول لك كما قلت بالأمس: لقد كنت أشفق عليك يا فدوى.. أشفق عليك من حب لا أمل فيه، حتى هذه الأمنية الصغيرة.. أمنية اللقاء بين إنسان وإنسانة يعيش أحدهما في القاهرة ويعيش الآخر في نابلس. وأقول لك أيضاً لقد كنت أحاول أن أجعلها فلسفة، بأن أتركك للزمن ليقدم إليك بيديه الحانيتين جرعة النسيان.. ولم أكن أعلم أن لك أنت الأخرى فلسفة حين قلت: إن أملك من وراء الحب هو الحب ذاته.. هو أن يجد الإنسان في هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك، لأنني سأكون إلى جانبك:

(١) نفسه ص ٢٢٨.

بكل خلجة نفس وبكل خفقة قلب . . وبكل دفقة من دقات الشعور .
وتسأليني الرأي في هذه الفلسفة فأقول: إنني مؤمن بها لأنني أوّمن
بالفن، الفن الذي يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء
الروح^(١) . .

ومن صميم الحزن واللوعة، ومن الحنين الجارف إلى دفء
الحياة بقرب الحبيب تصل صرختها إلى قلوبنا بعد أن نقرأ الوحشة
والفراغ في حياتها بعد القطيعة فتقول:

عام قريب
كانت حياتي قبله
شبحاً يدبّ على جديب
متعثراً بالصخر، بالأشواك
بالقدر الرهيب
حتى رآك
روحي تهلّ على كآبته
فتترعه يداك
فرحاً وإشعاعاً غريب

* * *

عام قصير
سرنا معاً فيه على دربي الوعر

(١) الرسالة السادسة عشرة للمعداوي/ كتاب صفحات مجهولة في الأدب العربي
المعاصر - رجاء النقاش .

جنباً إلى جنب ، وملء عيوننا
دفعاً الشعور
والعاطفة

وإذا الحياة على صدى
خطواتنا المتآلفة
خضراء تورق في الصخور

* * *

ووقفت وحدي
في وحشة التوهان . في يتم الغريب
وقفت وحدي
تصطك روعي في فراغ الدرب من ذعر وبرد
وعلى فمي
إشراقة ماتت . وفي قلبي
تنبؤ ملهم
أنني سابعي العمر وحدي .

* * *

أمسك يدي
سر بي ، غبار الأرض منعقد على دنيا غدي
يعمي خطاي المجفلات على طريقي الموصد^(١)
هذا الغبار

(١) الموصد: المغلق.

دَوّامة دارت بها حولي
أعاصير القفار
تلوي بعمرى المجهد^(١)

* * *

لا تبعد!
وبقيت أصرخ من قرارة وحشتي:
لا تبعد!
فتبدد الريح النداء مع الصدى المتبدّد
وبقيت وحدي
حيرى، أدور، أصارع الدوامة الهوجاء
وحدي
عبر الطريق الموصد^(٢)

ومن جديد يعود الحبيب محملاً بالأشواق ليبدد الفراغ
والوحشة.. وساعات الانتظار القلق لعل «همسة، نبأ» منه تأتيها..

وأطل وجهك مشرقاً من خلف عام
عام طويل ظلّ في عمري يدب كآلف عام
عام ظللتُ أجرّه خلفي وأزحف في الظلام
وعواصف ثلجية تصطكّ حولي والطريق
كانت تضيق كأنها أمل يضيق

(١) المجهد: المتعب.

(٢) دوامة الغبار.

ويضيع في تيه القتام^(١)

* * *

عام طويل ظلّ يفصلنا به بحر صموت
بحر دَجَتْ أمواجه وتجمّدت، بحر تموت
فيه الحياة وتغرق الخلجات في برد السكوت
وأنا على شطّ الأصمّ
أنا والفراغ وليل وهمي
أصغي لعل صدى يمر
بي، علّ شيئاً منك، همسٌ، نبأً،
شيئاً يمر
بي منك عبر مدى السكوت
لا شيء، إلا وطأة ثقلت وصمتٌ مستمر^(٢)

ثم تصل إلى ذروة الإحساس (فها هي الحياة تعود إلى حركتها
كما البحر تدب فيه معجزة فترف فوق مياهه حمامة زرقاء حملت إليها
البشارة بعودته. والحمامة في التراث الشعبي هي الطائر الذي بشر النبيّ
نوحاً بانتهاء الطوفان، وبعد أن تصف كيف حضنت الحمامة بفرح
ونشوة تصوّر لقاءها به وغبطتها التي أنستها عذاب عام مر طويلاً وكأنه
ألف عام)^(٣) ..

(١) القتام: الغبار.

(٢) العودة - ديوان فدوى طوقان ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي ص ٢٠٥ .

عامٌ ودبت بعده في البحر معجزة الحياة
لم أدر كيف، هناك رقت بغتة فوق المياه
وهنت حمامة
زرقاء، في طُهر السماء، هفت إليّ على غمامه
وطوت جناحيها وفرت من يديه
ورنت إليّه
وتنفست دفناً وعطراً
وشممت فيها منك شيئاً هاجني جداً وذكرى
فمضيت أثلّم ريشها
وجعلت صدري عشها
وشعرت أنك عدت، أنك في الطريق
واجتاحني فرح الغريق
حضنته شطآن النجاه

* * *

وأطلّ وجهك من بعيدٍ
حلوا يرف على وجودي
ورأيت أحزاني تموت على تعانق راحتينا
وأضاء في فمك ابتسام
البسمة الجذلى التي أحبتها منذ التقينا
عادت تضيء كأنها قلب النهار
وتصب في نفسي فيشربها دمي
ويعبّها قلبي بالظمي

ونسيت آلامي الكبار

ونسيت في فرح اللقاء عذاب عام

عام طويل ظلّ في عمري يدب كألف عام^(١)

(وهنا نلاحظ ما تكشفه لنا هذه القصيدة بوضوح من مثالية عاطفية لا تمت للحياة الواقعية بصلة وكأن هذا الحب في حياة فدوى طوقان وأنور المعداوي هو الحب الأول في حياة صبية وصبي صغيرين بريئين لا يعرفان من أمور العاطفة شيئاً سوى اللهفة والحنين، ويكفي أن نقرأ هذا البيت من قصيدة فدوى لنجد أمامنا تجسيداً لهذه المثالية العاطفية المتطرفة :

ورأيت أحزاني تموت على تعانق راحتينا

لقد اطمأن قلب الشاعرة وهدأت عواطفها وماتت أحزانها لمجرد العناق بين يدها ويد حبيبها.. ويا ليتة كان عناقاً حقيقياً.. لقد كان عناقاً بين اليدين في الخيال)^(٢).

وكانت الرسالة السابعة عشرة من المعداوي إلى فدوى عام ١٩٥٤ آخر رسالة كتبها ولم ترد عليها وصممت على رفع جدار بينها وبينه بسبب انقطاعه في كل مرة عن المراسلة فقد ظنت (أنه يحب اللعب بعاطفتها تجاهه).

من رسالته الأخيرة يقول :

(١) العودة - فدوى طوقان الديوان ص ١٩٣ .

(٢) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ٢٨٨ .

«ولكنني كنت محتاجاً إلى من يحمل لي مصباحاً ولو صغيراً
لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك» ويقول: «لقد كنت
دائماً أنتظرك يا فدوى، ولكنه كان انتظاراً في الظلام عند ذلك الجسر
الكبير الذي طلبت مني أن أمضي نحوه... يا طالما ذهبت إليه وانتظرتك
هناك، ولكن آه من ذلك الظلام الرهيب الذي كان يسلبني الرؤيا، رؤية
كل شيء»^(١).

في هذه الكلمات يشير المعداوي إلى قصيدة لفدوى كتبتها من
وحي علاقتها العاطفية معه وهي قصيدة (وانتظرنني):

حين تبدو الحياة في يومك المقفر مني
كثيبة مملولة
ويلحّ الشوق اللجوج فتدعوني ودوني -
مجاهل وبراري
وأمانني شوامخ الأسوار
فامض نحو الجسر الكبير مع الذكرى
ورعشاتها العذاب الجميلة
ستراني هناك أمشي إلى جنبك
أنت استغراقتي وابتهالي
وأنا كنتك الذي تحتويه
بيدَيَّ باخِلٍ وحرصِ ضنين^(٢)

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش ص ٣١٤.

(٢) ضنين: بخيل.

وتواريه عن فضول العيون
والأصيل الملوّن الحلو يطوينا -
حبّيين ناسجي آمال .

ويقول المعداوي في رسالته الأخيرة :

«كم ألح عليّ الشوق، وكم عدت للماضي، وكم عشت في
الذكرى، وكم وكم وكم . . ولكني كنت محتاجاً إلى من يحمل إليّ
مصباحاً ولو صغيراً لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن
أراك»^(١) .

وهذه إشارة إلى المقطع الأخير من قصيدتها :

هكذا كلما ألح عليك الشوق
عد للماضي، وعش في الذكرى
وأحي أيامنا ونحن على النهر
ونيسان ضاحك في الضفاف
راقص الظل رائع الأطياف
وانتظرنني، غداً سيجمعنا الحبّ
شتيتين في حماه استقرا^(٢)

وانتهت قصة الحب بين فدوى طوقان وأنور المعداوي بالفشل
ولكن الأدب قد اغتنى «فقد كتب المعداوي فيها أدباً جميلاً هو ما
سجلته سطور رسائله ولأن فدوى طوقان قد كتبت في هذه القصة أروع

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر .

(٢) فدوى طوقان الديوان - وانتظرنني ص ١٨٢ .

قصائدها. . . فإضافة إلى الجمال الأدبي فقد ضمت رسائله مجموعة من الآراء النقدية الذكية الجريئة مما أعطى لهذه الرسائل قيمة موضوعية إلى جانب قيمتها الجمالية. . . وهي بالإضافة إلى ذلك تلعب دوراً كبيراً في إلقاء الضوء على شعر فدوى طوقان وتساعدنا على فهم جانب هام من جوانب هذا الشعر الذي يحتل ولا شك مكانة كبيرة في أدبنا المعاصر»^(١).

ها هو ديوانها الأول (كله مشاعر بكر وتفتحات صاحبة على مشرق عمر جديد. . . فيه الحبّ والرضى والعتب والسهاد والشكوى والاعتذار، ثم لوم الزمان والمجتمع والحياة مع تأكيد على سرمدية الحب وديمومة العاطفة. . .

ولكن ذلك كله لا يمنع العلاقة من أن تنتهي وتظهر الشاعرة ثكلى تنوح على حبها الضائع وتلمس أمكنة ذكرياتها)^(٢) :

أذهبي واعبري الصحارى إليه
فإذا ما احتواك بين يديه
ولمحت الأشواق في مقلتيه
مائجاتٍ أشعةً وظلالاً
مفعماتٍ ضراعةً وابتهالاً
فاحذري، لا تعبّري، لا تبوحِي
لا تبيني تأثراً وانفعالا

(١) صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش .

(٢) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي ١٤٩ .

واكتمي عنه ما يزلزل روحي
منه واطوي هواي عن عينيه^(١)

إنها بداية النجوى من الشاعرة لصورتها .

ثم في المقطع الثاني تطلب من الصورة أن تكتم هذا الحب عنه
وأن تكون بكماء التعابير جامدة الملامح عند لقائه . فإذا نام الحبيب
وسرح في عالم الحلم أن تنطلق الصورة إليه وتعانقه لتستقر في جفنيه
ثم تنشده الشعر وتبثه النجوى عما يدور في قلب صاحبته من أسى
ولهفة :

فإذا الليل سفّ منه الجناحُ
ومضت في انسراحها الأرواحُ
تتلاقى على مهاد الأثيرِ
عبر آفاق عالم مسحورِ
عالم الحلم ، مسبح اللا شعورِ

* * *

فاسبقي أنت كل حلم إليه
واستقرّي هناك في جفنيه
عانقي روحه ، ورفّي عليه

* * *

أنشديه شعري وغني لحوني

(١) (إلى صورة) - ديوان فدوى طوقان ص ٧٤ .

في هواه،

بشيه كلّ شجونني

صوّري لهفتي له وحنيني

حدثيه عن صبوتي، عن جنوني

حدثيه .. حتى يلوح الصباحُ

وإذا ما أفاق من نومه تعود الصورة بكماء جامدة بلا تعبير ..

لتحفظ سرّ الحب (فالغموض ساحر آسر) وليبقى هو بين الشك واليقين ..

فإذا قبّل السنى عينيه

وصحّا، لم يجد هناك لديه

غير «لا شيء» مائلاً في يديه

وارجعي أنت صورةً بكماءً

وجهها خامدٌ بلا تعبير

ميت القلب والهوى والشعور! ..

* * *

هكذا وليظل حبي سرّاً

غامضاً،

إن للغموض لِسِحْرا

آسراً، يجذب النفوس إليه

حيث تبقى مشدودة في يديه

ليس تقوى على الفكّاك

فكونني

أنت مثله لديه عمقاً وغوراً
هكذا، وليظلّ نهب الظنون
تائهاً بين شكه واليقين! .. (١)

في هذه القصيدة نجد كثيراً من الطباع الأنثوية عارية من كل
قناع .. نجد خفر العذراء، وخوف المرأة من البوح .. كما نجد أن
سرّها يعذبها لكنها تتلذذ بهذا الألم ..

أما قصيدة «في محراب الأشواق» (٢) :

فهي هيام على أطلال حب، ونشيج بصوت عذب، إنها بحث عن
السعادة الضائعة عن كل لحظة قضياها معاً .. حتى المقعد الخالي يحنّ
مرفقه إلى الحبيب ..

هذا مكانك، ههنا محراب أشواقي وحبي
كم جثته والدمع، دمع الشوق مختلج بهديبي
كم جثته والذكريات تفيض من روحي وقلبي
يمددن حولي ظلهنّ، ويتنفضن بكل درب

* * *

هذا مكانك مثل روحي، فيه إحساس كثيب
متحسّر .. يصبو إلى الماضي، إلى الأمس الحبيب
متسائل عن شاعرين، هواهما حلم غريب

(١) إلى صورة - ديوان فدوى طوقان .

(٢) ديوان فدوى طوقان ص ٨٤ .

كم رنّحا بالشعر جوّهما، ففاض جوى مهيب

* * *

هذا مكانك، أين أنت، وأين أطياف الفنون؟!
المقعد الخالي يحنُّ إليك مرفقه الحنون..
أسوان، يرمقني وقد أهويت أنشج في سكون
ومواجدي ملهوفة الثيران، تهدر في جنون؟.

* * *

وأخيراً تضع تبعة عذابها على القدر وقيود المجتمع:

ذنبى؟ وما ذنبى ألا ويلاه من ظلم القيود!
ما حيلتي والغلُّ في عنقي على حبل الوريد
أواه؛ حتى أنت لم تنصف قلبي الشهيد؟!
أواه، حتى أنت تظلمني مع القدر العنيد؟!

ولا شيء يخفف عن القلب المعذب المكسور إلا بقايا ذكريات
من (صدى منغوم في أغوار الذات)..
..

لم لا تعود؟ أنا هنا وحدي بهيكل ذكرياتي
وحدي، ولكني أحسُّك في دمي، في عاطفاتي
أصغي لصوتك، للصدى المنغوم في أغوار ذاتي
وأراك من حولي، وفيّ، وملء أفاق حياتي

* * *

في ديوانها الثاني صورة استسلام المرأة للحب المكتشف
واستغراقها في غمرة التجربة التي أصبحت معروفة لديها..

إن ثقل المعرفة والواقع يمنحها طمأنينة تجعلها تهتف :

وجدتها، يا عاصفات اعصفي
وقنعي بالسحب وجه السماء ..
ما شئت يا أيام دوري كما
قُدِّر لي، مشمسة ضاحكة
أو جهمة حالكة^(١)
فإن أنوارِي لا تنطفئ
وكل ما قد كان من ظلٍ
يمتد مسوداً على عمري
يلفه ليلاً على ليلٍ
مضى، ثوى في هوة الأمس
يوم اهتدت نفسي إلى نفسي^(٢) ..

ها هي ذي قد وجدت نفسها بعد طول ضياع وتشرّد، واختفى
اضطرابها فلتدر الأيام كيف شاءت مشمسة أو حالكة فإن نورها الداخلي
لن ينطفئ بعد الآن، والليل الطويل الذي عاشته بعذابه وآلامه ذهب
عندما عادت نفسها إلى نفسها ..

فبحمل الحبيب في تجربتها الجديدة معنى الأمان والاستقرار،
فتفيض أحاسيسها الهادئة، وتحس إحساس الأم تجاه طفلها الحبيب
وتنسى .. تنسى الجراح والآلام، ولا يبقى سوى هذا الهوى الرقيق

(١) حالكة : شديدة السواد .

(٢) وجدتها .. ديوان فدوى طوقان ص ١٧٤ .

أنا وحنيني البعيد إليك
ورائحة الليل والذكريات

* * *

طوانا هناك على الشطّ ليل
نديّ الغلائل، شفت مضيء
وأنت بجنبي طفلي الحبيب
تنفض قصة عمر مليء
تحدثني عن حياة الكفاح
وخوض الردى
وكان الصدى
مشيراً، وكانت هناك جراح . . .

* * *

تلمست تلك الجراح الغوالي
وشيء بصدري كحسّ الأمومة
تلمستها وحنوت عليها
بروحي الرؤوم ونفسي الرحيمة
وفي غمرة الحب مرّت يدي
بدفق الحنان
ودفع الأمان
على رعشات الجبين الندي

ووسدت رأسك قلباً سخي
العطاء، ولفّ النقاء كلينا
وغنّت بأعيننا العاطفات
وابتسم الحب في شفّتيننا
ومرّ نسيم طريّ علينا

* * *

وكان هوانا جميلاً كهذا
الوجود، عنيفاً كعنف الحياة
وكنا معاً نغمّاً واحداً
عميق الرنين فسيحاً مداه
نموت ولا يتلاشى صداه
ويبقى يدور
يلفّ الدهور

يبارك سحر الهوى والحياة^(١)

إن حبها قدر مفروض عليها وسجن اختارته هي بنفسها سجن بنته
من الأمنيات الصغيرة الجميلة، ومن ذكريات مرت، ومن عاطفات تملأ
الحياة أملاً وسعادة. وحين تحاول الهرب من هذا القبض تجد الخلاص
مستحيلاً، وتلقي سلاحها لتضم يد الحبيب بين يديها لا فرار.. لا

(١) ذكريات الديوان - ١٧٨ .

هرب . . أين الهرب والحب قدر مكتوب لا انعتاق منه . .

إلى أين أهرب منك وتهرب مني
إلى أين أمضي وتمضي
ونحن نعيش بسجن
من العشق .
سجن بنيانه نحن اختيارا
ورحنا يداً في يد
نرسخ في الأرض أركانه
ونعلي ونرفع جدرانها
من العشق شدناه، من لبنات الأمان
ورسم خطوط الغد . .
ومن ألف رائحة ألف لون،
من الذكريات
من العاطفات . .

* * *

إلى أين أهرب منك وتهرب مني
إلى أين أمضي وتمضي
ونحن نعيش بسجن
نحاول منه انعتاقاً عسانا
نلاقي الخلاص كلانا
إلى أن تخور قوانا
وننهار عجزاً، وتبقى أمامي

وأبقى أمامك وجه لوجه
وفي شفتينا
لهاث أوام،
وفي وجنتينا
ظلال ضرام
ونلقي السلاح وتمضي يدانا
تلفّ هوانا
بحبّ وعطفٍ تلفّ هوانا
ونفنى رضىً ونذوب حنانا

* * *

سدى ومحال
سدى لا انعتاق لنا لا انفصال
محالٌ حبيبي محال^(١)

(وحين يتوصل رجل إلى امتلاك أعماق المرأة وهواجسها ويدخل ما بينها وبين نفسها، ويصبح قبلة نجواها في الضيق والفرح.. حينذاك يصبح هذا الرجل - بكل شخصيته - سرّاً ذاتياً من أسرار المرأة.. إن أنانية المرأة تمتلكه وتمثله وتخفيه في أحشائها لأنه ليس العشيق فقط بل هو الابن أيضاً.. هو جزء من عالمها الأنثوي السري الذي لا يعرفه أحد إلا أدوات أنوثتها وفتنتها من مشط ومرآة، أما الناس فيجهلون كل

(١) الانفصال - ديوان فدوى طوقان ص ١٨٦ .

هم يحسبون لقاءنا محض صدفة
هل كان صدفة
من قال؟ من أين هم يعلمون
أنت الذي يعلم
وأحمر الشفاه
والعطر والمرآة
وزينتي هي التي تعلم
لا هو^(٢)

إنها تلخص ما تريده في أبيات بسيطة لكلمات مختصرة هدفها في
الحياة فهي قد خلقت لتلبي نداء قلبها ولتضع كنوز حياتها كلها بين يدي
الحبيب:

نادني من آخر الدنيا ألبى
كل درب لك يفضي فهو دربي
يا حبيبي أنت تحيا لتنادي
يا حبيبي أنا أحيا لألبى
صوت حبي
أنت حبي
أنت دنيا ملء قلبي

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي .
(٢) فدوى طوقان - ١٩٠ - هل كان صدفة .

كلما ناديتني جئت إليك
بكنوزي كلها ملك يديك
بينابيعي، بأثماري، بخصبي
يا حبيبي^(١)

في ديوانها الثالث: قد أصبحت ترى بعينين، وصارت تقيس المسافة من الجانبين لقد عرفت الفكر ونقيضها ومن الطرف والنقيض تتولد حياة جديدة ومعرفة حقيقية. وقد تآقت الشاعرة إلى الحب فغنته ثم استسلمت لتجاربه، وأخيراً تجاوزه ففرقت في غمار النسيان، وعامت في أمواج الاشمئزاز والكراهية. ثم عادت إلى نفسها وهي تنظر إلى الحياة ببسمة سخرية تتعالى بها على العواطف العابرة والأحاسيس الطارئة. لكنها لم تنهزم بل عادت إلى الحياة وهي أعمق غوراً وأبعد قراراً مما كانت عليه. إن حيويتها ودفق عواطفها أكبر من كل جحود. ترى هل نعرف إلى أي قرار غارت بها تجربتها. وكيف عادت تطفو وتلامس الهواء والنور. إنها تتألم ولكن دون تشنج أو حنين. تتحدث عن الحب الماضي كعلاقة عابرة يستطيع أن يصنعها اثنان مخدوعان بالوهم:

كان وهماً، نحن أعطيناه شكلاً
وحياه
ثم رويناه لوناً
وعبير

(١) كلما ناديتني - ديوان فدوى طوقان ص ٢٠٧.

وعشقناه، عشقنا وَهَمْنَا الغالي الغرير
وحصرنا الشوق في دنيا رؤاه^(١)

* * *

إنه وهم تغذى من الشعور والخيال وتربى حاملاً الأمنيات
والأحلام الكثيرة.. فترة قصيرة وتلاشى ولم يبقَ منه إلا بعض ذكرى
عشت في روح الشاعرة وأزقت ليالها فإنها لا تعدو اليوم إلا صورة
جثة ووريت في التراب:

فترة، ثم تلاشى ذات ليلة
حينما هبت رياح
ذات عصفٍ هائج، ذات اجتياح
وتلاشى ما تبقى منه إلا
بعض ذكرى مُثْقَلَة
بالجراح

* * *

بعض ذكرى منه هيأنا لها نعشاً -
وقبرا
ودفناها بصمتٍ
ونفحنها بعبره
وتركنا عندها آخر زهره

(١) أغنية البجعة - الديوان ص ٣١٥.

عبرت عبر جواء الموت شعراً^(١)

ولعل الواقع يؤيد هذا التصور، لقد سقطت صورته من نفسها
وراحت تفتش عن بقايا صور في داخلها فما وجدت إلا الفراغ وسؤالاً
غريباً: (هل أحبيتك يوماً؟ وكيف؟) (وكيف تلاشى الهوى واندثر).

نسيان^(٢)

لقيتك أمس، ولكنّ عينيّ
أنكرتاك، فلم تعرفاك . .
ورحت أسائل قلبيّ عنك
وهل مرّ حقاً عليه هواك
تلمست جدرانها علّ فيها
بقايا ظلالٍ، بقايا صور . .
فما نبضت من غرامك ذكرى
هناك، ولا لاح منه أثر

* * *

أحقاً أحبيتك يوماً؟ وكيف؟
أم كنت طيفاً بحلم عبر
وهب كنت طيفاً تعشقتُهُ

(١) أغنية البجعة - الديوان ص ٣١٥ .

(٢) ديوان فدوى طوقان ص ٣١٨ نسيان .

فكيف تلاشى الهوى واندثر

أما من بقايا؟

أما من أثر؟

* * *

تذكرتُ، كنتُ رفعتك يوماً

إلى قممي الشامخات المضيئة

وقد ضاع وجهك بين زحام -

الوجوه بأفق حياتي المليئة .

(أما تهاوي القيم فلم يعد فاجعة تفجر فيها حس المأساة وينابيع

الدمع إنها تستقبل الخيانة بضحكة، وترتكب الخيانة وهي تضحك فإما

أنها يثست، وإما أن معرفتها بلغت من الكثافة حداً أمحت منه الدهشة

والمفاجأة)^(١) ؟ .

وتسأل أين الوفاء؟

أما من وفاء؟

وأضحك في وجهك المتجهم

أسأل مثلك أين الوفاء؟ ..^(٢)

إنها دائماً مستعدة لتمد ذراعيها للمستقبل بثقة فطرية ويقين عفوي

بأنه سوف يحمل إليها الحب والرفاء .

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي .

(٢) أسطورة الوفاء ص ٣٣٨ الديوان .

أعطنا حباً، فبالحب كنوز الخير فينا تتفجر

إن أنوثتها المعطاء لا تألف الكره ولا تسبخ الانفراد إن الحب
يفيض من وجودها.. من كل كيائها.. ويبعثها من جديد.. فهي
تحتاج إلى الحب لتعطي لا لتأخذ لأن الحب يفجر أنوثتها..

القصيدة الأولى^(١)

لا، لا تسلمي، لن أبوح به
سيظلّ حبك سرّ أغواري
أعطيه من ذاتي، وأمنحه
ما عشت عاطفتي وإيثاري
أسقيه من عطري، أوسده
صدري، أناغيه بأشعاري
لهواك كل مواسمي امتلأت
وسخت بفيض جنّي وأزهار
لهواك آفاق مرصّعة
يزهو السنا في صدرها العاري
لهواك هذا الليل أسهره
نشوى، أبيع الليل أسراري
ها أنت، ها أنا،

(١) القصيدة الأولى ٣٣٢ - الديوان.

قصةٌ بدأت
مكتوبةً في سفر أقدراي

.....

لا، لا تسلني، لن أبوح به
سيظلّ حبك سرّاً سراري.

وليس للقرب أو البعد من قيمة أو تأثير بالنسبة لحبها..

غبتَ؟ ولو غبتَ، فما زال في

دمي عبيرٌ منك يرويني

يخصبني، يملأ كوني غنى

يمنحني أجمل ما في الدنى

الشعرَ، والحلمَ، ودفءَ المنى

إنها تتمثل لنا كإنسانة لا تعرف الوهن ولا يتسرب إلى كيائها

الضعف، دائماً على استعداد لأن تبدأ من جديد..

تعود لي، تعود لي في غدٍ

وترجع الدرب تنادينني

فأصحبُ الشمس إلى مواعي

أصحبها وفي دمي يقظة

يبعثها الحب فتعطيني

تذوقَ الحياة، حسَّ الجمالِ

الوهجَ الضاحك فوق التلالِ

الخُضرة الريّا بحضن الجبالِ

وتؤكد الشاعرة أنها لو عادت صغيرة فإنها تعود إلى نفس حياتها القديمة، وترتكب نفس حماقات لتواجه نفس المصير.

لا مفر (١)

لو أني رجعتُ صغيرة
لو أني رجعتُ وملء يديه
تجارب عمري وخبراته
وما لقتني الحياة الكبيرة
وما علمتني السنون الكثيرة
لعدت برغمي لأخطائيهِ
ونفس حماقاتيه
لكنت أواجه نفس المصير
ونفس الضياع
وذاات الجبال تروح تلفّ على كتفيه
وتمضي تحزُّ وتقسو عليه
وما من خلاصٍ، وما من مفرّ

* * *

هناك وراء الوراء، بأعماق ذاتي
هنالك يرسب شيء خفيّ

(١) ديوان فدوى طوقان ص ٣٥٦ قصيدة لا مفر.

يظلّ خفياً ولا شكّل لَه
يظلّ قوياً ولا لون لَه
يوجّه سيرى، يخط دروبى
ويرفع بين يديّ صليبي
ويحدو خطاي إلى الجلجلة!.

إنها الجبرية التي تكمن في داخل الذات، هي جزء لا ينفصل عن النفس...

في قصيدة «الكلمة والتجربة» تستعرض الشاعرة كيف تولد القصيدة منذ أن تكون كلمة «حب» هي الموحى الأول والسريع فتعيش في قلب الشاعر فيحسها نغمة تنساب في لين وتتحوّل أغنية في لياليه الموحشات الطويلة... وتولد التجربة الحلوة ثم فجأة تعرى الكلمة الناعمة من ظلها الذي أسبغه الشاعر سحراً... وتنهار... وتعود الحيرة من جديدة... ويعود التساؤل عن الأشواق الرائعة والأحلام الجميلة...

الكلمة والتجربة^(١)

الحبّ، يا نعومة الكلمة
يا سحرها، يا جمال الجمال

(١) فدوى طوقان - الكلمة والتجربة ص ٣٦٥.

من قبل أن تحرقنا التجربة
إذ مضى يلفظها الآخرون
رفقت على صحرائنا نسمة
وأغدقت في بالبنا نعمه
وانكشفت للخيال
مرايعٌ سحريةٌ مخصصة
ينعمُ في غبطتها العاشقون

* * *

وفي الليالي الموحشات الطوال
نلمحها نجمة
تشعّ في الأفق الخفيّ البعيد
تومئ في صمتٍ إلى عالمٍ
ضاحٍ جديدٍ
تحلو المعنى فيه، وتسخو الوعود
ويزهو الحلم، ويزهو الوجود

* * *

وذات يوم تقبل التجربة
غنيةً معطاء
بنظرة تطرق أبوابنا
تطرقها بنظرة حلوة
تومض من عينين معبودتين
وهاجتين

تطرقها بضحكة طائره
ساخنة، بنكتة بارعه
ذكية، بلفتة من جبين
غض، فتى، زئبقي الرواء
فتنتح الأذرع في نشوه
نعانق التجربة الحلوه
نحقق الحلم الذي أوغلت
رؤاه في أعماق أعماقنا

* * *

يوم، وتنهار سماواتنا
وتنتهي الدنيا التي أمرعت
وأينعت فيها خيالاتنا..

ورغم كل هذا العياء فإننا لا نستطيع أن نتخيل حياتنا فارغة،
ونشعر بالتعاسة والفقر «إذا انطوى العيش ولم تحترق أرواحنا في لهبِ
التجربة».

وهي تؤكد للحبيب أنه سوف يذكرها بعد عشرين عاماً من
هواها.. وأنه سوف يجد في شيخوخته شبابه باقياً في صحائف
شعرها:

«بعد عشرين عاماً»^(١)

غداً، في ليالي الشتاء الطوال
الكثيية، عبر ازدحام السنين
وقد ييس الزنبق الأبيض الغض
وارفض بين غصون الجبين
وتثقل هذي العيون الغوالي
ويذبل هذا الشباب النضير
هنالك سوف تعيدك للأمس
مهما نأى لفئة الذكريات
وتلقى فتى أسكرته الحياة
فلون بالطيش أحلامها
هناك سيمثل في ناظريك
الكليلين ظل لطيف فتاة
وتبسم أنت، وفي نهدة
تقول: سقى الله أيامها!

* * *

وتأخذ ديوان شعر قديم
لشاعرة غيبتها القبور
وتقرأ أبياته فتشم

(١) ص ٣٧١ الديوان.

عبير شبابك بين السطور
سبتلقى شبابك في كل سطرٍ
نديّ الحواشي، طريّاً، غرير
وفي كل حرفٍ تعود الحياة
لأشياء كنتَ بها تزدهي
هنالك تعلم أن ربيعك
باقٍ بشعري فما ينتهي.

إن طبيعة الشاعرة الانفعالية وحيويتها يفوقان كل هزيمة فهي
تواصل المسير بعد كل فشل. (في البدء كانت تلقي التبعة على
المجتمع.. لكنها بعد ذلك تستلم زمام المبادرة فتبدأ بالمحاكمة
والتنفيذ، وتعلن أن الرجل لا يستحق أن ترفعه إلى قممها الشامخات
المضيئة لذلك لا تبدو منها بادرة أسف.. ويتلون حزنها من الشكوى
إلى العتاب المرّ.. ثم إن علاقاتها بدأت تنقطع دون سبب مباشر..
هناك سبب كبيرة يفوق إرادتها ويحطم مساعي الطرفين في الإبقاء على
الصلة.. ذلك هو الملل^(١) :

لا تقل إن الملل
لم يلففنا وإن اليأس لم يلقِ علينا
ظلّه القاتم، لم يبقِ لدينا

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي ص ١٨٩ -
١٩٠.

قبساً يطفو على أحلامنا^(١)

* * *

وحين يقبل السأم يستشعر الإنسان ضعفه ويرى عجز الآخرين عن
انتشاله، فيكتشف أنهم في مثل ضعفه وحيرته، إنه الفراغ وعدم القدرة
على العطاء.. إنها السلبية.. فعندما لا يستطيع الحب أن يبني، فإنه
حب فاشل حكم عليه بالموت.. إنه مجرد «استغاثات غريق بغريق»..

الهوى كان ملاذاً وهروب
من ضياعي وضياعك
كان لاستقرار نفس لقيت نفساً وروح
عانقت روحاً، لأرساء قلوب

* * *

الهوى كان لبنني ولنعطي
خير ما فينا
لا ليفنينا
ويحيل النور والخصب ظلاماً ورماد
في أغانيها

* * *

انتهينا يا رفيقي
حبنا كان استغاثات غريق بغريق

(١) القصيدة الأخيرة ص ٤٠٣.

لم تكن تملك لي شيئاً ولا كان لدي
لك شيء... .



أنت تدري . لا تسأل عن حبنا
نحن حاولنا ولكننا فشلنا
أسفاً، ماذا غنمنا؟
غير غصّات أسانا وجراح الأغنيات؟^(١)

ورغم قصائد الحب الكثيرة.. ورغم «الأغاني الناعمة الحنون»
تحس فجأة بأن هذا الحبيب غير جدير بالحب وأن الوقت الضائع هو
هذا الوقت الذي نطن الحب فيه حقيقة فيكون سراباً ويكون الندم..
الندم الصادر من أعماق الجرح..

كم يسألون
لمن ترى تنشدين
هذه الأغاني الناعمة الحنون
دافئة مشرقة كالضياء
مثقلة بالعطاء
ومن هواك الكبير
هذا الذي تسفحين
وتبذلين

(١) القصيدة الأخيرة ديوان فدوى طوقان ص ٤٠٣ عام ١٩٦٠ .

له كنوز الشعور
من ذاتك المليئة الخير
من روحك النضيرة المزهرة
لعله أطيّب إنسان
لعله أجدر إنسان
بكل هذا البذل، هذا السخاء

* * *

وأخفض الطرف وأبقى على
صمتي المريب
غامضة لا أجيب

* * *

لكن صوتاً ساخراً في ألم
منبعثاً من قلب جرح الندم
ينصبّ في أغواري المبهمة
مردداً في غنة مفعمة
بالهزء، بالضحك الحزين المرير
لعله أطيّب إنسان
لعله أجدر إنسان
بكل هذا البذل هذا السخاء

* * *

واخجلي!

واخجلي لو أنهم يعلمون
ما أنت أو من تكون.

(كل هذه الدلائل تشير إلى انعطاف حقيقي في حياة الشاعرة
بأفكارها وآمالها.. ومن ثم بشعورها وشعرها.. إن شعرها يصور امرأة
لم يهزمها رجل، ولكن الحياة جرحتها بالعبث الكامن وراء كل
تجربة.. إنها أصبحت ضائعة عائمة في بحر صاخب لكن عطاء قلبها
أكبر من غدر الأحبة وتلون المشاعر.. فإيمانها بالحب محور وجودها
لأنها تعرف كيف تخلق الفرح لتمحو به المرارة والأسى وحتى السأم.
إنها لم تستجب للسأم لأنها لا تستطيع الحياة دون أخذ وعطاء.. ذلك
هو قدرها...^(١) .



(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي .

الموت، والرتاء عند فدوى طوقان

للموت معانٍ كثيرة تختلف من إنسان إلى آخر وللموت في مفهوم شعراء الأرض المحتلة معنى آخر..

«الموت، في شعر المقاومة، مرحلة لا بد منها للوصول إلى ما بعد الموت، إنه الواقع الذي فرض على أبناء فلسطين منفيين أم لا يزالون في ديارهم محاصرين وهو الحزن والعذاب والنفي والسجن والفقر والجوع والفراغ والضجر وكل المعاني التي تنطلق من واقع النكبة العربية في فلسطين، وتنصب في أتون الوغى للتخلص من هذه النكبة»^(١).

فما هو الموت بالنسبة لفدوى طوقان؟.. وكيف ومتى بدأت

(١) «الموت والحياة في شعر المقاومة» ياسين الأيوبي. ٢١٠ صفحات من القياس الكبير إلى فهرس الأعلام والصحف والأماكن والمصادر - دار الرائد العربي - بيروت ص ٤٠.

التفكير به؟ .. بدأت فكرة جديدة تراودها لعالم جديد.. فالموت يحتضن كل وجود الإنسان ويستأثر بجسده وعواطفه.. وهذه مناسبة تتيح لها أن تفكر بجسدها وأحاسيسها.. وبأنها ستهب نفسها لأول زائر يتناوله وهو هنا الموت.. لذلك تناجيه مناجاة الحبيب المجهول:

آه.. يا موت! أترى ما أنت؟ قاس أم حنون
أبشوش أنت أم جهنم؟ وفي أم خوون؟
يا ترى من أي آفاق ستنقض عليه؟
يا ترى ما كنه كأس سوف تزجها إليه؟
قل، أين، ما لونها؟ ما طعمها؟ كيف تكون؟^(١)

إن الموت راحة للجسد المتعب عندما تضمه الأرض كمهد هادئ بلا شعور ولا انفعالات.

كله يأكل، لا يشبع، من جسمي المذاب
من جفوني، من شغافي، من عروقي، من إهابي
وأنا في ضجعتي الكبرى وحضن الأرض مهدي
لا شعور، لا انفعالات، ولا نبضات وجد
جثة تنحل في صمت، لتفنى في التراب^(٢)

ولكن ورغم هذه الراحة الجسدية.. أين تذهب الروح؟ ما مصيرها؟.. هل تنجو من العدم وتخلد عبر الدهور؟ إنها الحيرة نفسها دائماً.. من أين البداية، وإلى أين تنتهي؟...

(١) خريف ومساء - ديوان فدوى طوقان ص ١٣.

(٢) نفس القصيدة.

ليت شعري، ما مصير الروح، والجسم هباء؟!
أتراها سوف تبلى ويلاشيها الفناء؟
أم تراها سوف تنجو من دياجير العدم..
حيث تمضي حرّة خالدة عبر السُدُم..
وبساط النور مرقاها، ومأواها السماء؟!.



حيرة حائرة كم خالطت ظنّي وهجسي
عكست ألوانها السود على فكري وحسي
كم تطلعت وكم ساءلت: من أين ابتدائي؟
ولكم ناديت بالغيب: إلى أين انتهائي؟
قلقٌ شَوْشٌ في نفسي طمأنينة نفسي! (١)

وهي، تتمنى الفناء حتى وهي في أجمل لحظاتها بين الطبيعة
الجميلة التي أحببتها دائماً وكأن الفناء والموت مع ما نخبه هو قمة
سعادة الحياة!..

أواه لو أفنى هنا في السفح، في السفح المديد.
في العشب، في تلك الصخور البيض، في الشفق البعيد.
في كوكب الراعي يشعّ هناك، في القمر الوصيد..
أواه، لو أفنى، كما أشتاق، في كل الوجود! (٢)

(١) خريف ومساء ديوان فدوى طوقان ص ١٣ .

(٢) مع المروج - ديوان فدوى طوقان ص ٩ .

إنها بكل رقة إحساس وشعور فياض تصف قصة موت فراشة عاشت عمرها بين الزنبق وأنسام الربى ثم فجأة في «فوران الصبا» يأتيها الموت المريع وحيدة لا تجد من يشيعها ولا دمة تبكيها. . وهنا تبكيها الشاعرة بقصيدة رقيقة حزينة وتذكر نفسها فهل يا ترى ستجد يوماً من يبكيها أو يذكرها؟..

أختاه لا تأسى فهذي أنا أبكيك بالشعر الحنون الرقيق
قد أنطوي مثلك منسية لا صاحبٌ يذكرني أو رفيق
أواه: ما أقسى الردى ينتهي بنا إلى كهف الفناء السحيق! ^(١)

إن الموت يخلصها من جسدها وهي تتمنى أن تدفن في ظل زيتونة:

جذورها تمتص من هيكلي ولم يزل بعد طرياً رطيب
تعبٌ من قلبي أنواره ومنه تستلهم سر اللهب

«إن فكرة الدفن ليست أكثر من رمز جنسي قد يحمل معنى الهروب من الجسد، وقد يحمل معنى الاستقرار في حياة رتيبة أما شجرة الزيتون بجمالها وثمرها، بزيتها وخضرتها الدائمة وحياتها الطويلة فهي الحياة التي تقابل الموت. وهي الخلود مقابل الفناء وهي الأخذ مقابل العطاء. . إن اللقاء بين الجسد وشجرة الزيتون يحمل كل الخصب والتجدد. . فيه معنى البعث: الشجرة تمتص الجسد، والجسد

(١) الشاعرة والفراشة - ديوان طوقان ص ١٨ .

يجعل الشجرة تزدهر^(١) . .

| | |
|---|--------------------------|
| عناصرى أعصابها والجذور | حتى إذا يا خالقي أفعمت |
| من وقدة الحسّ ووهج الشعور | انتفضت تهتزُّ أوراقها |
| مما تروّت من رحيق الحياة | وأفرعت غيناء فينانة |
| تذكر حلماً قد تلاشت رؤاه ^(٢) | نشوى بهذا البعث ما تأتلي |

وهي تستعرض عناصر حياتها في أكثر من قصيدة وتذكر فجائعها بأركان أسرتها: أبيها وأخيها وتبث الشعر ضيقها بوحدها، فتظهر من خلال الشعر طفلة تحن إلى أهلها، ومراهقة تتحسر على شبابها، وتؤمن أنها ستعيش محرومة، وتموت دون أن يبقى بعدها إلا أصدقاء الحرمان . . تقول:

حياتي دموع
وقلب ولوع
وشوق، وديوان شعر، وعود
حياتي، حياتي أسى كلّها
إذا ما تلاشى غداً ظلّها
سيبقى على الأرض منه صدى
يردد صوتي هنا منشداً:
حياتي دموع
وقلب ولوع

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر ص ١٦٦ - ١٦٧ .
(٢) أوهام في الزيتون - ديوان فدوى طوقان ص ٢٣ .

وشوق، وديوان شعر، وعود.

* * *

في لحظة تذكر الموت الذي خطف أحباء لها ولا يبقى سوى
الدموع في عالم جاحد..

بليل الشجون
وعمق السكون
تمر أمامي كحلم سرى
طيوف أحبائي تحت الثرى
فترعجُ نارِي خلف الرمادِ
ويُغرق سيل الدموع وسادي
دموع الحنين
إلى راحلين
مضوا وطواهم ظلام اللحد

* * *

بقلبي اليتيم
تنادي كلومي
أطلّ بروحك يا والدي
لتنظر من أفقك الخالد
فموتك ذلٌّ لنا أي ذلّ
ونحن هنا بين أفعى وصل
ونفث سموم
وكيد خصوم

بدنيا العقوق، بدنيا الجحود^(١) .

وليس الأب وحده بل هناك الأخ، .. نبع الحنان الخالد الذي ما
تزال تذكره في كل لحظات وحدتها وحزنها فقد كان «الضياء» لعينها
وقلبها ..

وفي ليل سهدي
يحرّك وجددي
أخّ كان نبع حنانٍ وحبّ
وكان الضياء لعيني وقلبي
وهبّت رياح الردى العاتية
وأطفأت الشعلة الغالية
وأصبحت وحدي
ولا نور يهدي
ألجلج حيرى بهذا الوجود^(٢)

* * *

وفي قصيدة رثاء لأخيها نمر طوقان .. تخبرنا كيف جاءها نبأ
موته عندما كانت في جامعة اوكسفورد البريطانية .. قالت :

«وارتجفت مثلوجة أصابعي على
وريقة البريد»

(١) حياة - ديوان فدوى طوقان ص ٤٦ .

(٢) حياة ص ٤٦ - ديوان فدوى طوقان .

هم يكذبون

هم يكذبون

بل أنتِ تحلمين، تحلمين
استيقظي، حلمٌ ثقيلٌ لا يُطاق
وحدّث عيناى في الأشياء
وامتدّت يدي

تلامس الخوانَ والكتابَ والأوراق
استيقظي، حلمٌ ثقيلٌ لا يُطاق
وحدّث عيناى في وريقةِ البريدِ -
من جديد

يا نمر، لا يا نمر، لا يا نمر

هكذا يجتاح الموت الأحياءَ العقلاءَ والأصحاءَ وتتبع فدوى
الحديث بعتاب لا يخلو من الوجد:

«يا نمر، يا حبيب أختك الكسيرة الجناح
يا نمر، يا جرحاً جديداً غار في
قلبي المغشى بالجراح
أهكذا بلا وداع يا حبيبنا ويا
أميرنا الجميل

لا قبلة على طراوة الخدين والجبين
لا نظرة أخيرة نحملها زاداً لنا
في وحشة الفراق
يا نمر، يا حبيبنا ويا أميرنا لو أنه

فراقُ أعوام حَمَلنا ثِقَلَه
لكنه فراقُ عمر
لكنه فراق عمر»

بعد هذا العتاب المرير تحتج على الموت الغاشم الغدار كيف
يخطف أحياءها الواحد تلو الآخر.. ثم تنادي ربها أن يظهر لتبته
شكواها أفليس هو (لطيف بعباده).

«وهمت في الدروب
غريبة في بلدٍ غريب
أحملُ ثِقَلًا لا تطيقه الجبال
أواه يا جنون هذه الحياة والأقدار
بغير حكمة يموت
بغير حكمة يموت
يا موتُ يا غشوم، يا غدار
تخطفهم أحبتي وإخوتي
أحبتي وإخوتي زهر الرياض -
لؤلؤ المحار
أحبتي وإخوتي الشمس والأقمار
تخطفهم في عز عنفوانهم
في روعة انطلاقهم إلى القمم
يا موت يا مجنون يا أعمى العيون -
يا أصم
يا قاصماً ظهري الضعيف لي لديك -

ألف ثار، ألف ثار

وأنت يا من قيل عنه إنه هناك

حانٍ لطيف بالعباد

حانٍ لطيف بالعباد؟ أين أنت

لا أراك

دعني أراك كي أقول إنه هناك»^(١)

وتصف الشاعرة حزنها الذي فجّر ينابيع الدموع وكهوف الوجع

والقلق تقول:

«حزينة أنا، حزينة تفجّري

يا نبعة الدموع

يا فرج المكروب يا سخية العطاء

تفجّري من كهفك السحيق، كهف الحزن -

والظلام والأسى الوجيع

يا نبعة بملح مائها

قد جُبلت أرض الشجا والموت والشقاء»

ولأنها نبّت عائلة كريمة لم تنس أن تعزي أمها التي أعطت بلادها

«أعلى اللآلئ وأعزها» وتقف على خاطرها وتهديء من روعها قالت:

«يا أمّ عائد إليك ابنتك الحبيب

تزفّ عرائس البحار في طراوة -

(١) مرثاة إلى نمر ص ٤٢٠ - ديوان فدوى طوقان.

الصباح
تزفهُ مشغوفةً بكنزها الثمين
لؤلؤة ما ضمَّ قلب البحر يوماً
مثلها بين اللآل
لؤلؤة تعزُّ في الرجال
أعطيتها يوماً بلادي، كم وكم
أعطيت يا أمي بلادي من لآل
أراك من هنا تفتحين
للعائد الحبيب صدرَك الرحيب
أرى محياك الضحك مشرقاً -
ببهجة اللقاء

وفرحة الحبيب بالحبيب
فلتنعمي، أما الدموع والجراح
فهي لنا، خلي لنا الدموع والجراح
وجهشة النديب:
وافجيعةاه!

إنها من أجمل قصائد الرثاء فهي ليس فيها انهيار عصبي ولا نفسية
محطمة ولا حزن بالوكالة، ولا إقبال على الانتحار، وإنما فيها عاطفة
أخوية طبيعية نبيلة، واعتراف بواقع هي أضعف من أن تغیره، وهي
أينما تذهب ومهما نأى بها البعد تعود ثانية بأشواقها إلى قبر أخيها
إبراهيم لتضع أشواقها بين يديه. . وتناجي قبره، فأی نور ينضح منه،
وأي جمال يكلله؟ فإن فيه أغلى إنسان على قلب الشاعرة. إنه نصيرها
وحبيبها وأخوها. . .

آه يا قبر ، هنا كم طاف روحي
هائماً حولك كالطير الذبيح
أو ما أبصرته دامي الجروح
يتنزي فرط تبريح وبأس
مرهقاً مما يغنيه الحنين
إن نأى بي البعد ردتني إليك
لاعجات ماتني وجداً عليك
لست تدري أي دنيا في يديك
من حنان وبشاشات وأنس
يا لقلبي ! أصبحت في الهامدين

* * *

آه يا قبراً له إشعاع نور
لا أرى أجمل منه في القبور !
فيك دنياي ، وفي قلبي الكسير
مأتم ما انفك مذبات لديك
قائماً يأخذ منه بالوتين

* * *

وإذا ينزف دمع المقل
يجهش القلب أسى ما يأتلي
نادباً عندك أغلى أمل

باکياً فیک نصیري وظهیري
ساکباً من ذوبه غیر ضنین^(۱)

* * *

(۱) علی القبر (إلى روح إبراهيم) ص ۱۲۳ .

الالتزام

«لفظة الالتزام قديمة في الاستعمال اللغوي، لكن التطور الفكري الحديث قد أفاض عليها معنى اصطلاحياً جديداً.

وهي أكثر ما تطلق اليوم في معرض الكلام على الفكر والأدب والفن، حيث نجد في مضامينها مشاركات واعية في القضايا الإنسانية الكبرى: السياسية والاجتماعية والفكرية.

وليس الأمر مقتصرأ على المشاركة في هذه القضايا، وإنما يقوم الالتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتخذه المفكر أو الأديب أو الفنان فيها.

وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحاً وإخلاصاً وصدقاً، واستعداداً من المفكر الملتزم لأن يحافظ على التزامه دائماً، ويتحمل كامل التبعة التي تترتب على هذا الالتزام.

من هنا كان الالتزام مرتبطاً بالعقيدة، منبثقاً من شدة الإيمان بها، صادراً في جميع أشكاله وأحواله عن أيديولوجية معينة يدين بها المفكر الملتزم.

ومعلوم أن الالتزام شيء، والالزام شيء آخر. فالالتزام يعني حرية الاختيار، وهو يقوم على المبادرة الإيجابية الحرة من ذات صاحبه، مستجيباً لدوافع وجدانية نابغة من أعماق نفسه وقلبه [...]. ومن طبيعة العمل المسؤول أن يكون هادفاً إلى غاية محددة. وللالتزام الفكري هدف، هو الكشف عن الواقع الراهن، والسعي إلى تغييره؛ أو قل: هو السعي إلى تغيير ما ليس سليماً فيه، لأن المفكر الملتزم يعاين ما ليس حقاً ولا عدلاً ولا خيراً، فيندد به، ويعمل على تحطيمه^(١).

والوجودية السارتريّة^(٢) شأنها شأن الواقعية الاشتراكية «تتمسك بالالتزام في الأدب وتعتبر أن الأديب مسؤول في كل ما يكتب، وأن للأدب رسالة هي رسالة الكشف والتغيير وتحقيق التحولات الاجتماعية والحضارية. ويلتقي المذهبان في اعتبارهما أن الإنسان موقف، وأن القول فعل، وأن الأدب عمل غايته تفجير طاقات الحياة وتحرير الإنسان. كما يلتقيان أيضاً في اعتبار الحرية شرطاً أساسياً من شروط الالتزام، وأنها في صميم العمل الأدبي، وأن الأديب لا يستطيع الهروب مما يجري حوله، فهو مدعو إلى اتخاذ موقف، وأن الأدب واقعة اجتماعية ذات هدف. فالأديب لا يكتب لنفسه وإنما يكتب للمجتمع الذي يعيش في كنفه متوخياً أن يحدث في ضمير هذا المجتمع هزة من شأنها أن تفتح الأعين على الواقع، وتبرز ما فيه من عيوب

(١) الالتزام في الشعر العربي/ الدكتور أحمد أبو حقة - دار العلم للملايين. ط ١ ١٩٧٩ - ص (١٢ - ١٤).

(٢) جان بول سارتر (J.P.Sartre) كاتب فرنسي معاصر من مواليد ١٩٠٥. هو فيلسوف الوجودية الفرنسية وحامل لواء الالتزام في الفكر الحديث.

بقصد الثورة عليها والإطاحة بها، وهو حريص في كل حين على قيم يريد تحقيقها في المستقبل. ومتى تحققت تجاوزها إلى قيم أخرى^(١).

أما عن هموم الشعر العربي الحديث فقد حمل في معظم نتاجه رسالة الالتزام «وتحولت القصيدة في جو الأطر الحضارية الحديثة التي خلقتها ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية في العالم العربي إلى موقف يتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بقضية من قضايا العرب المصرية. ولا ريب في أن كارثة فلسطين كانت طوال ربع القرن المنصرم أم القضايا العربية ومحورها ومنطلقها جميعاً.

فمنذ وقوعها عام ١٩٤٨، اهتز الضمير العربي من أعماق أعماقه، واعتراه ذهول شديد، أفاق منه على محاسبة نفسه ومحاسبة حكامه، وتحليل الهزيمة وتحري ما وراءها من الأسباب المباشرة وغير المباشرة.

ويا لهول ما اكتشف في آفاق الحياة العربية من فساد الحكم وأنظمتها، وفساد الإدارة والمؤسسات، وفساد الأخلاق، وتخلف المجتمع في عاداته وتقاليده وأنظمتها وثقافته وعلومه وآدابه وعمرانه وتفكيره، وتخلفه في الاقتصاد والإنتاج ومرافق العيش، وإمعانه في الفوضى والتفكك والتناذب والجهل، وتخبطه في الضعف والعجز والذل والذعر والاستغلال والنفاق والدسيسة والتملق والخمور، والعفن الروحي، والرجعية الفكرية والأخذ بالخرافات والأوهام، والعجز عن

(١) الالتزام في الشعر العربي ص ٤٦ - ٤٧.

المواجهة المتبصرة الجريئة لحقائق الكون وحقائق المجتمع، وحقائق النفس البشرية، وحقائق الوجود.

وطبيعي أن يؤدي هذا النقد الذاتي إلى الثورة على الذات، وعلى الحكام وإلى التمرد على أوضاع الأمة وأنظمتها، والسعي إلى الانتفاض والتجدد والتطهر [...] وكان الشعراء بدورهم يوظفون الشعر لجلاء هذه الأمور ويلتزمون، كالمفكرين، مبدأ التغيير في مجالات الحياة العربية عامة لخلق إنسان عربي جديد يمتلك الشجاعة والإخلاص والصراحة والوعي والثورة والتمرد والثقة بالنفس [...] ولعل السمة الكبرى التي يتسم بها الشعر العربي الحديث هي سمة الثورة وذلك انسجاماً مع الواقع العربي وما يقتضيه من تطلعات وتحديات»^(١).

وعن ملازمة الحرية للأديب الملتزم يقول توفيق الحكيم:

«يجب أن يكون الالتزام جزءاً من كيان الأديب أو الفنان، ويجب أن يلتزم وهو لا يشعر بأنه ملتزم مثله مثل حمام زاجل ينقل رسالة وهو حرّ طائر لا يشعر ب قيد في ساقه ولا بغلّ في جناحه.

فإذا شعر الفنان لحظة واحدة أنه يؤدي بفنه ضريبة عليه أن يؤديها وجوباً فإن الذي سينتجه لن يكون فناً»^(٢).

وفي مقالة تدعى «أدب الثورة وثورة الأدب» يقول طه حسين عن الأدب الملتزم:

(١) المصدر السابق ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢) من الأدب - توفيق الحكيم - المطبعة النموذجية ص ٣١١.

«الأدب يثور قبل أن تثور السياسة، وثورة الأدب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة لأنها تهيب قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم. تبغض إليهم نظاماً قائماً وتحبب إليهم نظاماً. تحقق لهم آمالاً تمتد إليها عقولهم وتقصر عنها أيديهم. وليست الثورة السياسية آخر الأمر إلا استجابة لثورة العقول والقلوب والنفوس التي يحدثها الأدب وتحديثها مع الأدب مؤثرات أخرى يتصل بعضها بالحياة المادية للناس ويتصل بعضها بالحياة المعنوية»^(١).

وفي تعريف لافت وجميل للأدب الملتزم يقول رثيف خوري:

«القصة النابتة على شطوط الأنهار، تبريها شفرة السكين. وقطعة المعدن يبوقتها المصنع ويحددها سناً. كلتاها، كلتا القصة وقطعة المعدن، مادة من غافل المادة وغيبها، وتغمس في الدواة وهي الأخرى مادة غافلة غبية، وتجبر على القرطاس، التي لا تعدو صنف المادة الغافلة الغبية، فكيف جاز إذن أن ننسب إلى شيء من ذلك كله المسؤولية فنقول القلم مسؤول اجتماعي؟ [...] الشاعر العتابي في جملة ما أثر عنه من جميل الكلام، تصور القلم باكياً يبكي وأحسبه أنزل قطر الحبر منزلة قطر الدمع فقال:

«يبكاء القلم تبسم الكتب»

وقال:

(١) الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين / د. يوسف نور عوض - دار القلم بيروت ص ٢٠٤.

«الأقلام مطايا الفطن»

وهذا فولتير «يواجه الملك فريدريك البروسي الكبير، فيقول له
وكأنما يتحداه:

«لك الصولجان ولكن لي قلماً».

وهذا وليّ الدين يكن، كأنما يسَلّ قلماً في وجه السلطان عبد
الحميد ساعة يكتب له:

«لأهزّنَّ به أركان قصرِكَ هزّاً»^(١)

أجل إنه القلم.

وإنها الثورة

«نفسر الثورة بأنها ليست مجرد حركة من الخارج تريد أن تهدم
واقعاً معيناً.

بل هي حركة من الداخل تريد أن تثور على ذهنية معينة وعلى
نفسية معينة.

لهذا، فنحن نؤمن بالصراع وبأن علينا أن نتمثل الصراع، وأن
نحرك مفرداته، وأن ننشر القضايا السلبية حتى تثور عليها، وننشر القضايا
الإيجابية حتى تعطينا زاداً للثورة»^(٢).

(١) الأدب المسؤول - رثيف خوري - منشورات دار الآداب بيروت ط ١ ١٩٦٨ -
ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) على شاطئ الوجدان - شعر - السيد محمد حسين فضل الله، رياض الرئيس
للكتب والنشر - ط ١ ١٩٩٠ - ص ٩ - ١٢.

ويستشهد جان بول سارتر في كتابه الموسوم «ما الأدب» بقول
لـ بريس بارين (Brice Parain) أن الكلمات «مسدسات عامرة بقذائفها»
فإذا تكلم الكاتب فإنما يصوب قذائفه .

في مُكْتَنه الصمت، ولكنه إذا اختار أن يصوّب فيجب أن يكون له
تصويب رجل يرى إلى أهداف، لا تصويب طفل على سبيل الصدفة
مغمض العينين ومن دون غرض سوى السرور بسماع الدوي^(١) .

فأين هو قلم فدوى طوقان وأين هي ثورة فدوى طوقان؟ وأين هو
التزام فدوى طوقان؟

نرى عند فدوى طوقان الروح القومية التي تستند إلى أمجاد
الماضي ومقارنة الحاضر به في قصيدة (اليقظة)^(٢) .

أيها الشرق، أي نور جديد لاح في عتمة الليالي السود
لف شَمّ الجبال والسهل والحزن، وهام الربى ورمل البيد
وإذا أنت يفتح النور عينيك، فتصحو على الضياء الوليد
وتمطيت من طويل خمودٍ ومسحت الجفون بعد هجود
وتطلعت في حماك، حمى الأمجاد، ربع العروبة الممدود

وقد سجلت في قصيدتها «بعد الكارثة» النكبة والهزيمة العربية
الأولى حيث تستعرض التخاذل والأنانية والانهازامية التي سادت الجو

(١) ما الأدب - جان بول سارتر - ترجمة وتقديم وتعليق د. محمد غنيمي هلال -

دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) اليقظة ص ١٣٤ ديوان فدوى طوقان .

العربي إبان المعركة .

يا وطني، مالك يخني على
روحك معنى الموت، معنى العدم
أمضَّك الجرح الذي خانته
أسأته في المأزق المحتدم
جرحك، ما أعمق أغواره
كم يتنزى تحت نواب الألم
أين الألى استصرختهم ضارعا
تحسبهم ذراك والمعتصم
ويعقب هذا النعي نداء للأقدار بأن تكتسح المؤسسات البالية لعل
أمتها تنتفض «مما علاها من رماد القدم» .

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| كوني أتياً عارماً واجرفي | كل ضعيف الروح، واهي القدم |
| كوني كما شئت لظي يغتلي | أو عاصفاً يقذف حمر الحمم |
| واكتسحي أنقاض هذا الحمى | من كل ركن خائراً . . منهدم |
| اكتسحيها وانفضي أمتي | مما علاها من رماد القدم |

ثم تنتهي القصيدة بإعلان الثقة بالأمة وبتحقيق الثأر ونوال النصر . .

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| ستنجلي الغمرة يا موطني | ويمسح الفجر غواشي الظلم |
| والأمل الظامىء مهما ذوى | لسوف يُروى بلهيب ودم |

ثم بعد النكبة حلّ عهد التشرد العربي محل التشتت اليهودي
وتوالت على الأسماع والنواظر حوادث البؤس من جوع وبتم وثكل مما

حل باللاجئين الفلسطينيين، فتوالت قصائد فدوى طوقان في وصف هذا الجحيم بمظهره النفسي والمادي: فاللاجئ بين ذكرى قوم ومجتمع وبيت ومدينة وبين فاقة وعوز وضياح يعيش في جحيم مقيم.

«مع لاجئة في العيد» و«رقية»: القصيدتان تعبران خير تعبير وأقربه عن دموع الذكريات وأحزان الحاضر وعن حقد الأطفال من أبناء اللاجئين وأيتامهم..

أختاه، أيّ الذكريات طغت عليك بفيضها
وتدفعت صوراً تثيرك في تلاحق نبضها
حتى طفا منها سحاب مظلم في مقلتيك
يهمي دموعاً أومضت وترجرت في وجنتيك
يا للدموع البيض! ماذا خلف رعشة ومضها؟..
أترى ذكرت مباهج الأعياد في (يافا) الجميلة؟
أهفت بقلبك ذكريات العيد أيام الطفولة؟^(١)

في ديوان (الليل والفرسان) (نجد أن الهزيمة عند فدوى طوقان غدت مصيراً فردياً قائماً يمحو جميع الذكريات ويقلب معطيات الحاضر ويوقعها في ليل دائم لا ينقذها منه سوى قدوم الفرسان، فدوى طوقان التي تسكن في نابلس العاصمة السياسية للضفة الغربية المحتلة.. قد عاينت الهزيمة عياناً وشاهدت قوات العدو تدخل المدينة وتبسط كفها الأسود على مقدراتها ورأت الألوف من مواطنيها يهيمون بلا مأوى ولا ملاذ.. وخبرت خبرة مباشرة تلك اللذة الخفية التي يحس بها المهزوم

(١) مع لاجئة في العيد ١٤٠ - ديوان فدوى طوقان.

حين يستطيع إيقاع أخف الأذى بعده.. ومارست مذلة الوقوع تحت
العسف الصهيوني مثلما مارست نشوة ارتفاع معنويات العرب حين بزغ
ونشط وتقوى عمل القداء العربي..

إن للديوان وجهين: الأول الانكسار والهزيمة والغدر والخيانة
والاستخذاء..

يوم رأينا الموت والخيانة
تراجع المدُّ
وأغلقت نوافذ السماء
وأمسكت أنفاسها المدينة
يوم اندحار الموج، يوم أسلمت
بشاعة القيعان للضياء وجهها
ترمد الرجاء
واختنقت بغصة البلاء
مدينتي الحزينة^(١)

إنه يوم الاحتلال الصهيوني يوم الموت والخيانة إنه زمن انكشاف
القيعان البشعة..

إنه يوم خيم الصمت على المدينة «كالليل غامض» «محمل بوطة
الموت والهزيمة».

اختفت الأطفال والأغاني

(١) مدينتي الحزينة ص ٤٨١.

لا ظلّ، لا صدى
والحزن في مدينتي يذثّ عارياً
مخضّب الخطى
والصمتُ في مدينتي
الصمتُ كالجبال رابضٌ^(١)
كالليل غامضٌ، الصمتُ فاجعٌ -
محملٌ
بوطاة الموت وبالهزيمة
أواه يا مدينتي الصامته الحزينة
أهكذا في موسم القطاف
تحترق الغلال والثمار؟
أواه يا نهاية المطاف .

* * *

في قصيدة «لن أبكي»^(٢) التي وجهتها الشاعرة إلى شعراء
المقاومة في الأرض المحتلة عام ٦٨ . . تقول:

على أبواب يافا يا أحبائي
وفي فوضى حطام الدور
بين الردم والشوك
وقفتُ وقلت للعينين: يا عينين

(١) نفس القصيدة ص ٤٨١ .

(٢) لن أبكي ص ٥١١ .

قفا نبك
على أطلال من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الدار
وتنعي من بناها الدار
وأن القلب منسحقاً
وقال القلب: ما فعلت؟
بك الأيام يا دار؟ ..

«بين كل ظلال الحل والترحال والإقامة والظعن لم تستعمل «قفا نبك» بأوجع من استعمالها هنا: زيارة عرب الأرض المحتلة مجدداً لعرب الأرض المحتلة من قديم أو لبقايا هؤلاء العرب. ماذا يملك العربي في هذا المقام غير الوقوف على الأطلال ونعي أهل الدار وذم الأيام وصروف الدهر؟

وهل يقدر لهذه الأمة بفعل تجزؤها وغفلتها أن تعود كما كانت: قبائل تضرب في الصحراء من مكان إلى مكان»^(١).

ويجيئها محمود درويش بقصيدة هي من عيون شعره بما تمتاز به من وعي القضية وإيمان وحب للأرض.. فقصيدة (يوميات جرح فلسطيني) تتصف بالجلال في مطلعها وبالصلابة في صلبها وبالرقة في نهايتها وبالإيمان في ختامها.

نحن في حل من التذكار فالكرممل فينا^(٢)

(١) دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي .
(٢) من الشاعر محمود درويش «يوميات جرح فلسطيني» إلى فدوى طوقان

وعلى أهدابنا عشب الجليل
لا تقولي : ليتنا نركض كالنهر إليها
لا تقولي

نحن في لحم بلادي ، وهي فينا

* * *

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا لم يتفتت حبنا بين السلال
نحن يا أختاه من عشرين عاماً
نحن لا نكتب أشعاراً ولكننا نقاتل

أما الوجه الثاني : فهو الصدر المكشوف لرصاص العدو والجبهة
المرفوعة بالغضب والنفور والبندقية المسددة المتخفية ، والتصميم على
الإيقاع بالعدو مهما كانت المخاطر ، الوجه الآخر هو التحدي .

«حرיתי!

حرיתי!

حرיתי!

صوتٌ أرددُهُ بملء فم الغضبِ

تحت الرصاص وفي اللهب

وأظُلُّ رغم القيد أعدو خلفها

وأظُلُّ رغم الليل أقفو

خطوها

وأظلّ محمولاً على حدّ الغضب
وأنا أناضل داعياً حرّيتي ! .

حرّيتي !

ويردد النهر المقدس والجسور

حرّيتي

والضفتان ترددان : حرّيتي !

ومعابر الريح الغضوب

والرعد والإعصار والأمطار في وطني

ترددها معي :

حرّيتي ! حرّيتي ! حرّيتي ! .. » ^(١)

إنها بداية الثورة، رغم الرصاص، رغم السجن، رغم القيود
الكثيرة، فلا بد لهذا الظلام أن ينجلي، ولا بد للسلاسل أن تنقطع ..

حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل باب
والليل يهرب والضياء يدكُ أعمدة الضباب» ^(٢)

* * *

(١) حرية الشعب ص ٥٥٤ - ديوان فدوى طوقان .

(٢) نفس القصيدة .

خصائص شعر فدوى طوقان..

(ياخذ «الرمز» بعده الأساسي في «الفعل الشعري» ويصبح أساساً لا غنى عنه في العملية الشعرية .

إنه أبرز وأنضج أسس عناصر إغنائها، ومن هنا أيضاً يمكن للمرء فهم مقولة شيلر التي تركز على أهمية الرمز والتي تعتبر أن كل ما في الشعر ليس سوى رمز للواقع . . «الرمز الشعري» إذن، هو «فعل رمزي» يعتمد الإشارة الموحية، المشبعة بالأبعاد والإيماءات ليعبر من خلالها عن معاناة الواقع الفردي/ الجماعي في سياق ربط «الآتي» بـ «الأزلي» ووضعه ضمن طموح الحاضر المستمر إلى الأبدى^(١) .

وفدوى طوقان استخدمت الرمز في شعرها ككل شعراء الأرض المحتلة . . فهي هي ترمز للثورة بالحصان في قصيدة «لن أبكي» :

أحبائي حصان الشعب جاوز كبوة الأمس
وهبَّ الشهم متفضاً وراء النهر

(١) دراسات حركية الفكر الأدبي . د . وجيه فانوس ص ٥٣ .

أصيحخوا، ها حصان الشعب يصهل واثق النهمة
ويقلت من حصار النحس والعتمة
ويعدو نحو مرفئه، على الشمس».

وهي تستعمل رمز الفرس الثكلي تعبيراً عن الأمة العربية والفارس
رمزاً للقائد الراحل عبد الناصر:

«آه ما آن له أن يترجل
والتوت فوق أساها الفرس الثكلي
وتاهت مقلتاها
في الخضمّ الآدمي الهادر المسحوق
من يفدي فتاها
من يفك الفارس الغالي المكبل
من إसार الموت، من يرجعه
العاشق المدنف الساحة
من يرجعه؟
والتوت فوق أساها الفرس الثكلي
وعرت حزنها آهاً فأها
من يفك الفارس الغالي المكبل
آه ما آن له أن يترجل»^(١)

«وتقدم صورة رمزية أخرى مستمدة من مظاهر الطبيعة إذ الريح
تعلن أن موته الميلاد، فالريح القوية المتجددة تؤكد أن الأمة حينما

(١) على قمة الدنيا وحيداً ص ٦٠٦.

تفقد قائدها لا تموت، بل إنه يبعث من جديد في هذه الأمة من أحضان جراحها وآلامها وعطاء الأمة يستمر برغم كل الآلام»^(١).

«قالت الريح: سيأتي
موته الميلاد لا بد سيأتي
في يديه الشمس، ذات الشمس، في
مقلتيه الوجد، ذات الوجد والعشق
المعنى

من جراح الأرض يأتي
من سنين القحط يأتي
من رماد الموت يأتي
موته الميلاد لا بد سيأتي»^(٢)

وفي قصيدة (إلى السيد المسيح وعيده) تستحضر الشاعرة شخصية السيد المسيح وتترك لنا الوصول إلى دلالتها الرمزية المعاصرة، وتجعل مدينة القدس تصلب وكأنها تشير إلى أن أولئك الذين صلبوا السيد المسيح قد أعادوا جريمتهم مرة أخرى باحتلال القدس وصلبها.

«يا سيد يا مجد الأكوان
في عيدك تصلب هذا العام
أفراح القدس
صمتت في عيدك يا سيد كل الأجراس

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ١٢٣.

(٢) على قمة الدنيا وحيداً مرثية الفارس ص ٦٠٢.

من ألفي عام لم تصمت
في عيدك إلا هذا العام»^(١)

ثم توظف الشاعرة بعضاً من أقواله:

«قتل الكرامون الوارث يا سيّد -

واغتصبوا الكرم

وخطاة العالم ريش فيهم طيرُ -

الإثم

«وهنا لا نأخذ من المثل الذي قدمه السيد المسيح دلالة الحرفيّة، فإن اليهود الذين هم هنا «الكرامون» الذين قتلوا الوارث واغتصبوا الكرم، لم يكونوا حراساً على الكرم «فلسطين» وإنما المقصود هنا استحضار الدلالة الرمزية المعاصرة لتلك النهاية الكرامين، والتي جاءت في إنجيل مرقس حيث إن صاحب الكرم «يأتي ويهلك الكرامين»^(٢).

واستخدمت فدوى طوقان رمز «الطوفان» رمزاً للاحتلال الصهيوني العدو، ورمزت للأمة العربية بالشجرة. تقول في قصيدتها «الطوفان والشجرة»^(٣).

«يوم الإعصار الشيطاني طغى وامتد

يوم الطوفان الأسود

(١) إلى السيد المسيح في عيده ص ٤٩٩ - ديوان فدوى طوقان.

(٢) الحركة الشعرية في فلسطين ص ١٤٠.

(٣) الطوفان والشجرة ديوان فدوى طوقان ص ٤٨٧.

لفظته سواحل همجية
للأرض الطيبة الخضراء
هتفوا، ومضت عبر الأجواء الغربية
تتهادى بالبشرى الأنباء:
هوت الشجرة
والجذع الطود تحطم، لم تبقى الأنواء
باغية تحياها الشجرة
هوت الشجرة؟
عفو جداولنا الحمراء
عفو جذور مرتوية
نبذ سفحته الأشلاء
عفو جذور عربية
توغل كصخور الأعماق
وتمدُّ بعيداً في الأعماق.

* * *

ستقوم الشجرة
ستقوم الشجرة والأغصان -
ستنمو في الشمس وتخضر
وستورقُ ضحكات الشجرة
في وجه الشمس
وسيأتي الطيز
لا بد سيأتي الطيز

سيأتي الطير سيأتي الطير» .

تستخدم الشاعرة أكثر من رمز مفرد فهناك :
«الطوفان الأسود - رمز الاحتلال الصهيوني»
«الشجرة - رمز الأمة العربية»
«الطير - رمز السلام والخير»

فالرمز هنا يحمل شحنات إيحائية كبيرة حينما تصبح الكلمات المفردة مطلوبة لذاتها ومطلوبة لمعانيها الرمزية أيضاً. وتمهد الشاعرة لهذا الطوفان بيوم إعصار كبير طاغ تلفظه سواحل همجية «الكيان الصهيوني» ويحطم جذوع الشجرة. وهذا مستوى دلالي مباشر إذ تجعل للطوفان معنى واقعياً حين تتحدث عن الأنواء وعن الأشجار وأغصانها وجذوعها التي تبقى في الأعماق. وظهور المستوى الرمزي للرمز خلف الدلالي المباشر هو الذي يكسب الرمز غناه، ولا تصبح الدلالة الرمزية هنا مجرد استبدال مفردة بأخرى بل إن استبدال كلمة بكلمة أخرى يفسد الصورة لأن المعنى الرمزي لا يتحقق من مجرد الإتيان باللفظة المفردة بل من خلال السياق الذي تجيء فيه. وهذه هي الرمزية الحقة التي هي سمة أسلوبه وليست سمة خاصة بالكلمة المفردة^(١).

الموسيقى :

الموسيقى في الشعر من أهم عناصره ولعل الوزن والقافية هما

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ١٥٦ - ١٥٧ .

أكثر عناصر الموسيقى أهمية في الشعر . . وإذا كانت عناصر الموسيقى تتعدد لتشمل الجنس في الشعر، إلا أنه يظل للوزن والقافية مكانة خاصة . . فالوزن يتحقق من خلال الإيقاع المنظم الذي يعتبر كما يقول ماياكوفسكي :

«الطاقة الأساسية للشعر، ولا يمكن أن يفسر، ولكنه يمكن أن يوصف بأنه يشبه التأثير المغناطيسي أو الكهربائي» . .

ويمكن تعريف الإيقاع «بالمعنى الواسع للعبارة على أنه تعاقب أنغام منسقة في عملية تتابع ألحان ووقت» .

يقرر أرسطو في كتابه (فن الشعر) أن الإيقاع والوزن تستخدم جميعها في تحقيق المحاكاة، يقول «على أن الناس قد اعتادوا أن يقرنوا بين الأثر الشعري وبين الوزن فإطلاق لفظ الشعراء عليهم ليس لأنهم يحاكون بل لأنهم يستخدمون الوزن نفسه»^(١) .

وتأتي القافية لتحقيق دوراً مهماً في اتساق النغم إذ بكونها عدة أصوات تتكرر في ختام كل بيت أو سطر شعري، فإن هذا التكرار يشكل جزءاً من موسيقى القصيدة حين يصبح «بمشابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع تردها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذن في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن»^(٢) .

(١) (فن الشعر) ترجمة عبد الرحمن بدوي القاهر ١٩٥٣ ص ٥ - ١٢ .

(٢) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة . د . صالح أبو اصبع ص ١٨٠ .

«لم يتخلَّ الشعر العربي عن الوزن باعتباره عنصراً هاماً من عناصر القصيدة إذ يتجاوز في الشعر العربي الحديث نظامان من الشعر الموزون:

١ - القصيدة العمودية: وهي التي نظمت على البناء التقليدي وتعتمد على وحدة البيت لا وحدة التفعيلة وهي تلتزم بالقافية العمودية بأنواعها المتعددة.

٢ - القصيدة الحرة: وهي التي تحررت من قيود الشعر التقليدي ووزنه وقافيته. وتركت وحدة البيت ولجأت إلى وحدة التفعيلة ونوعت في استخدام القافية دون التزام بنظام محدد لها»^(١).

من الأبحر البسيطة التي استخدمت بكثرة لدى شعراء الأرض المحتلة:

الرمل - الرجز - المتدارك - الكامل - المتقارب - الوافر في قصيدة (مرثية الفارس)^(٢) - إلى جمال عبد الناصر لفدوى طوقان ترثي القائد الذي فقدته العروبة - تستغل الشاعرة إمكانات بحر الرمل حيث تقول سلمى الجيوسي عنه (يمكنه أن يتقلب بين أيدي الشعراء في ألف لون وقالب محتفظاً دائماً برشاقة هي فيه أصلاً، ولكن لابساً ثوب الحزن مرة والغضب مرة أخرى والمرح ثالثاً)^(٣)، تستخدم الشاعرة أغلب صيغ «فاعلاتن»:

(١) نفس المصدر ص ١٨٥.

(٢) مرثية الفارس - ص ٦٠٢ ديوان فدوى طوقان.

(٣) موسيقى الشعر الحر - سلمى الجيوسي ص ١٥٢.

- ١ - واقتدانا فاعلاتن
- ٢ - آه ما أغلى الفداء فاعلاتن - فاعلان
- ٣ - واشترانا فاعلاتن
- ٤ - آه ما أغلى الثمن فاعلاتن - فاعلن
- ٥ - وعلى وخز مسامير الألم فاعلاتن - فاعلاتن - فاعلن
- ٦ - وعلى حز سكاكين العياء فاعلاتن - فاعلاتن - فاعلان
- ٧ - أسند الرأس وأرخى فاعلاتن - فاعلاتن
- ٨ - هدب جفنيه ونام فاعلاتن - فعلان
- ٩ - وبعينيه روى الحب وأحلام السلام فاعلاتن - فاعلاتن - فاعلاتن - فاعلان
- ١٠ - آه ما آن له أن يترجل فاعلاتن - فاعلاتن - فاعلاتن

نلاحظ في هذه القصيدة كيف استخدمت الشاعرة صيغ المراحل المتعددة في داخل القصيدة الواحدة واستخدمت كذلك إمكانيات السطر الشعري، الذي يطول ويقصر إذ نجد أسطراً شعرية من تفعيلة واحدة مثل السطر الأول والثالث ونجد أسطراً من تفعيلتين مثل الأسطر الثاني والرابع والسابع والثامن.

يمكننا النظر في أبيات القصيدة وموسيقاها الهادئة التي أخالها تنساب جلال الموقف الحزين واستخدام حروف المد وتسكين القوافي (واقتدانا/ آه ما أغلى الفداء/ واشترانا/ آه ما أغلى الثمن)^(١).

(١) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة د. صالح أبو اصبع ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

التضمين النثري :

(يأتي التضمين النثري غالباً كمعادل موضوعي^(١) لحالة نفسية إذ تكثر فيه العاطفة، أو انسياً لتداعي المعاني، ومحققاً كذلك هدفي القطع والوصل في البنية الإيقاعية للقصيدة أو تعبيراً عن الدرامية والخطابية المباشرة وقد يكون نوعاً من العجز الشعري)^(٢) .

توظف فدوى طوقان التضمين كما يوظفه غيرها من الشعراء ولا تكتفي بإدخال العنصر الدرامي إلى القصيدة. بل إنها تلجأ إلى استخدام اللغات الأجنبية في قصيدة لها تتردد جملة (افتح الباب) بأربع لغات: تقول فيها: من بحر المتدارك:

«وبنو عبس طعنوا ظهري

في ليلة غدر ظلماء . .

Open the door

Ouvre la porte

افتح آت هاديليت

افتح باب!

- وبكل لغات الأرض على بابي يتلاطم

صوت الجند

(١) المعادل الموضوعي: كما يراه ت.س اليوت يكون بالعثور على مجموعة أشياء على موقف على سلسلة من الأحداث تكون هي الصيغة التي توضع فيها تلك العاطفة حتى إذا أعطيت الوقائع الخارجية التي لا بد أن تنتهي خلال التجربة الحسية استثيرت العاطفة على التور «ت.س اليوت» الشاعر الناقد ترجمة إحسان عباس ص ١٣٣ .

(٢) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة د. صالح أبو اصبع ص ٢٦٣ .

- يا عبلة إني . . .

- يا ويلي . . .»^(١)

هنا تستخدم اللغات الإنجليزية والفرنسية والعبرية والعربية المنطوقة بلسان يهودي لتؤكد بهذا التضمين غير الموسق هوية الطارقين، إذ إن هؤلاء جاؤوا من شتات الأرض وليسوا شعباً واحداً. وحينما تقدم التضمين الثري تمهد له برابط لفظي..

(اقرأ خبراً كالأخبار)

ثم تسوق الخبر.. (بيت لحم - فوجى المزارعون في خربة سكايًا بمجموعة من الجرافات خرجت من مستعمرة كفار عصيون وشرعت في قلع المزروعات في أراضي تلك البلدة) ثم تقول شعراً:

(اقرأ شكوى مرفوعة لوزير الحرب)

ثم تقدم الشكوى بأسلوب نثري متوائم مع انفعالاتها فهذه الأخبار التي أصبحت تتكرر وتلك الشكوى المتضمنة في الخبر الثالث لم يعد لتكرارها ما يثير عاطفتها أو يشحنها أصبحت جميعها أمراً اعتيادياً لا يحرك شحن الشاعرة ولا يثير عاطفتها ولذا جاء الخبر نثراً تقول:

ذات الأخبار..

لا شيء جديد في الأخبار

لا شيء مثير»^(٢)

(١) كوايس الليل والنهار ص ٥٨٢ ديوان فدوى طوقان.

(٢) الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة. د. صالح أبو اصبع ص ٢٧٦.

وهكذا نجد أن فدوى طوقان تناولت عدة موضوعات :

(الأول: هو حزنها على فقد أخيها الشاعر الفلسطيني العربي الكبير إبراهيم طوقان .

الثاني: هو تجربتها الأنثوية كفتاة حساسة تعيش في مجتمع تحكمه التقاليد القاسية، وإذا قيست فدوى طوقان بشاعراتنا المعاصرات كانت أصدقهن تمثيلاً للعاطفة الصحيحة والشعور الذي يخامر الأنثى وليس معنى هذا أن شعرها مقصور على الوجد والحنين فإن لها تأملات روحية وصوراً حسية متنوعة دلت على تتبعها وتعمقها في فهم الكون والحياة مع تيارات الفكر الحديث .

أما الموضوع الثالث فهو قضية فلسطين: فإن لها في فلسطين المنكوبة المنصوبة شعراً لم يقل مثله الرجال . .

إن طائفاً من الإلهام الإلهي والفن المطبوع قد تخير فدوى طوقان لتحمل رسالة الشعر النسوي في جيلنا المعاصر يمكنها من ذلك تضلعها في الفصحى وتمرسها بالبيان وإنها لتجود بالشعر من نفسها وحسها غير منسحبة على التكلف والتقليد ولا مرددة لشعر مصنوع تفوح منه رائحة الترجمة والاقتباس وإن لها لأمداً بعيداً هي منطلقة نحوه وقد انشق أمامها الطريق^(١) .

(١) من مقال للأديبة السورية وداد السكاكيني في العدد ٩٦٨ الصادر في ٢١ يناير سنة ١٩٥٢ في مجلة الرسالة (بعنوان فدوى طوقان شاعرة الوجد والحنين) .

مختارات

أشواق حائرة

ترتجّ أهوائي وأشواقي
متدافع التيار، دفاق
محمومة بدمي، بأعراقي
حيران يغمر كلّ آفاقي
أظلاله العطشى بأحداقي

* * *

بحنينها، بغموض لهفتها
متقحماً جدران عزلتها
يدعو بها في صمت وحدتها
أهي الحياة تهيب بابنتها؟
عن نفسها، تشقى بحيرتها

* * *

ماذا أحسّ؟ هنا، بأعماقي
بي ألف إحساس يحرقني
ألف انفعال، ألف عاطفة
ماذا أحسّ؟ أحسّ بي لهفأً
جفت له شفتاي وارتعشت

نفسي موزعة، معذبة
شوقاً إلى المجهول يدفعها
شوقي إلى ما لست أفهمه
أهي الطبيعة صاح هاتفها؟
ماذا أحسّ؟ شعور تائهةٍ

قلبي تغور به الحياة وقد
فتهزّ أغواري نوازعه
ويظل منتظراً على شغف
أحلام محروم تساوره
ويود لو تمضي الحياة به
.....

عمقت ومدّت فيه كالأمْد ..
صخباً، دفاقة المدد
ويظل مرتقباً على وقد
متوحد في العيش منفرد
للحبّ، مصدر فيضها الأبدي!
.....

* * *

وهناك تومئ لي السماء وبي
فأحس إحساس الغريب طغى
وأرى كواكبها تعانقني
تهمي على روعي أشعتها
فأودّ لو أفنى وأدمج في
.....

شوق إليها لاهفّ عارم
ظماً الحنين بروحه الهائم
بضياؤها المترجرج الحالم
وتلقه بجناحها الناعم
عمق السماء ونورها الباسم
.....

* * *

مالي يزعزعني ويعصف بي
تتضارب الأشواق حائرة
الأرض تعلق بي وتجذبني
وهناك روعي هائم شغف
مستحقراً الأرض، تفزعه
.....

قلق عتيّ جائح الألم
في غور روعي، في شباب دمي
وتشدّ قبضتها على قدمي
بالنور فوق رفارف السدم
دنيا التراب، وهوة العدم
.....

* * *

روحي يلوب بدار غربته
فهناك أصداء يسلسلها

عطشاً إلى ينبوعه السامي
صوت السماء بروحي الظامي

وهنا، هنا، في الأرض يهتف بي
صوتان.. كم لجلجت بينهما
صوت يقيد خطو أقدامي
يتنازعان شرع أيامي
وأنا كيان تائه قلق
يطوي الوجود حنانه الظامي! ^(١)

* * *

(١) وحدي مع الأيام.

في درب العمر (١)

«لا تصافح كل من لا قيت في طريقك ..
إن من الناس من يجب أن لا تمتد إليهم يداً، بل مخلباً ناشباً».

زرادشت : نيتشه

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أغرس زهر الحب في الدرب | أتيت درب العمر مع قلبي |
| تنهلّ في دقّ وفي سكب | ليغرق الناس بأشذائه |
| فينعموا في فيثه الرطب | ليغمر الصحب بعطر الهوى |
| ووطأوه في الثرى الجذب! .. | فبعثروا زهري بأقدامهم |
| ولجّ في دقّ وفي وثب | وارتج قلبي خلف صدري أسى |
| غنى عن الناس، عن الصحب | فقلت: في أهلي وفي إخوتي |
| وخلتهم قد ملأوا قلبي .. | وخلتني ملأت منهم يدي |
| خنجرهم وغاص في جنبني! | فلم يطل وهمي حتى هوى |
| هازئة مني ومن جبي .. | وضحكت نفسي في سرّها |
| شيء سوى الأشواك في الدرب! | وسرت مع قلبي وحيدين .. لا |

(١) وحدي مع الأيام.

الصدى الباكي

شاعري، لا تقسُ في عتبك، لا تظلم وفائي
أنا حسبي قسوة الدنيا وإعنات القضاء
آه لو تدري بآلامي، بمأساة شبابي
لبكى قلبك وارتج ليأسي وعذابي

* * *

أنا لم أنسَ هوى فجّر الحاني وشعري
أنا لم أنسَ هوى رفّت به أيام عمري
أنا أنسى؟ كيف؟ لا يا حلم قلبي، يا نجّتي
لا، ومن ألف روحينا على الحب النقيّ

* * *

سل ضمير الليل، هل أودعته أسرار حبي
هل تغنيت بأشعارك في وحدة قلبي
إن هذا الليل يطوي كل أسرار حياتي
إنه معبد أحلامي ومأوى ذكرياتي

* * *

شعرك العاتب كم فجّر دمعي، كم شجاني!
والنداء الشاعري العذب كم هزّ كياني!
لو تراني والهوى يصرخ في روعي الأسير
وأنا أشدو بأشعارك في الليل الكبير

* * *

أنت روح طائر.. يشدو على كل الغصون..
يرتوي من خمرة الحب، ومن نبع الفتون
وأنا روح سجين قصّت الدنيا جناحي
نغمي ينبيك عني، عن مدى عمق جراحي!

رحمة يا شاعري، وانظر إلى أصدقاء روعي
إنها في شعري الباكي استغاثات ذبيح!
إنها يا شاعري أنات مظلوم طريد
إنها غصّات مخنوق بأطواق الحديد

* * *

كلّما ضمّك حضن الليل في صمتٍ وحزنٍ
ومضى قلبك حيران الهوى يسأل عني..
أرهف السمع، تجد روعي مجروح النداء
ضارعاً في ألم:
رحماك لا تظلم وفائي! (١)

(١) وحدي مع الأيام.

في محراب الأشواق

هذا مكانك، ههنا محراب أشواقي وحبِّي
كم جثته والدمع، دمع الشوق مختلج بهديبي
كم جثته والذكريات تفيض من روحي وقلبي
يمددن حولي ظلهن، ويتنفضن بكل درب

* * *

هذا مكانك، كم أتيت إلى مكانك موهنا
تمضي بي الساعات لا أدري بها، وأنا هنا
روح أصاخ لهتفة الذكرى، وللماضي رنا
يتنسم الجوّ الحبيب، ويستعيد رؤى المنى

* * *

هذا مكانك، مثل روحي، فيه إحساس كئيب
متحسرٌ.. يصبو إلى الماضي، إلى الأمس الحبيب
متسائل عن شاعرين، هواهما حلم غريب
كم رنّحا بالشعر جوّهما، ففاض جوى مهيب

* * *

هذا مكانك، أين أنت؟ وأين أطياف الفنون؟!
المقعد الخالي يحنُّ إليك مرفقه الحنون..
أسوان، يرمقني وقد أهويت أنشج في سكون
ومواجدي ملهوفة الشيران، تهدر في جنون؟

* * *

ذنبني الذي قد هاج ثورة قلبك المترفع
كفرتُ عنه بأدمعي، بتنهدي بتوجعي
كفرتُ عنه بما ترى من ذلتي وتخشعي
وبخفض قمة كبريائي الشامخ المتمنّع!

* * *

ذنبني؟ وما ذنبني ألا ويلاه من ظلم القيود!
ما حيلتي والغلُّ في عنقي على حبل الوريد
أواه؛ حتى أنت لم تنصف قلبي الشهيد؟!
أواه؛ حتى أنت تظلمني مع القدر العنيد؟!

* * *

قلبي يئن، يلوب في ألم، يسائل في شرود:
لم لا يعود؟ فلا يجيب سوى صدى: «لم لا يعود»
وأروح، في شفتيَّ أشعار، وفي كفيَّ عود
وأعائب الأيام.. والزمن المفرّق.. والوجود!.

* * *

لم لا تعود؟ أنا هنا وحدي بهنكل ذكرياتي

وحدي، ولكنني أحسُّك في دمي، في عاطفاتي
أصغي لصوتك، للصدى المنغوم في أغوار ذاتي
وأراك من حولي، وفيّ، وملء آفاق الحياة! .^(١)

* * *

(١) وحدي مع الأيام.

(١) فِي مِصْرَ

يا مِصْرَ، حِلْمَ سَاحِرِ الْأَلْوَانِ، رَافِقِ كُلِّ عَمْرِي
كَمْ دَاعَبْتَ رُوحِي رُؤَاةَ فَرْفَ رُوحِي خَلْفَ صَدْرِي
حِلْمَ كَظَلِ الْوَاحَةِ الْخَضِرَاءِ فِي صَحْرَاءِ قَفْرِ
أَنْ أَجْتَلِي هَذَا الْحَمَى . . وَأُضْمَهُ قَلْباً وَعَيْن . .
وَالْيَوْمَ، فِي حِلْمِ أَنَا، أَمْ يَقْظَةُ، أَمْ بَيْنَ بَيْنِ؟

* * *

صَدَحْتَ بِقَلْبٍ إِذْ وَطَّئْتَ ثَرَاكَ أَنْغَامُ سَوَاحِرِ
فَكَأَنَّمَا فِي قَلْبِي الْمَأْخُودُ غَنَى أَلْفِ طَائِرٍ
وَعَرَقْتَ فِي أَمْوَاجِ إِحْسَاسٍ بَعِيدِ الْغُورِ غَائِرِ
أَنَا هُنَا؟ فِي مِصْرَ، فِي الْوَادِي النِّيلِ؟!
أَنَا هُنَا فِي النِّيلِ، فِي الْأَهْرَامِ، فِي ظِلِّ النَّخِيلِ؟!

* * *

وَتَلَفَّتْ عَيْنَايَ فِي دَهْشٍ، وَفِي لَهْفٍ غَرِيبٍ . .

(١) وَحْدِي مَعَ الْأَيَّامِ.

ماذا؟ هنا الدنيا الخلوب تُثير أهواء القلوب ..
ماذا؟ هنا نار الحياة تُوَجَّ صارخة اللهيب ..
في كل مجلَى فتنة رقصتْ، وسحرٌ مدّ ظله
ماذا؟ أمصرٌ أم رؤى أسطورةٍ من ألف ليلة؟!

* * *

كيف اتجهت تجاوبٌ وصدى لموسيقى الوجود
في النيل يعزف لحنه الأبدي للشط السعيد
في وشوشات النسمة المعطار، في النخل الميود
حتى النجوم هنا أحسنَ لهنّ ألحاناً شجية
حتى السحاب أخاله تحدوه موسيقى خفية

* * *

يا مصر، بي عطش إلى فرح الحياة .. إلى الصفاء ..
يا مصر، نحن هناك أمواتٌ بمقبرة الشقاء
لا يطمئن بنا قرارٌ .. لا يعانقنا رجاء ..
لا شيء إلا ضحكة الهزء المريع على المباسم!
كالضحكة الخرساء قد يبست على فك الجماجم!

* * *

نفسي مصدّعة .. فضميني لأنسى فيك نفسي
قَسَتْ الحياة وأترعت بمرارة الآلام كأسِي
والظلمة السوداء مطبقة على روحي وحسي
فاحني عليّ وزوديني من مفاتنك الجميلة ..

هي نهزة لم أدِر كيف سخت بها الدنيا البخيلة! .

* * *

يا ليتني يا مصر نجم في سمائك يخفق
يا ليتني في نيلك الأزلّي موجٌ يدفع
يا ليتني لغزٌ . أبو الهول احتواه ، مغلقٌ . . .
تهوى وتنسحق الدهور مواكباً ، وأنا هنا
بعض خفيٍّ من كيائك لستُ أدرك ما أنا!!

* * *

يا مصر حلم ساحر الألوان رافق كل عمري
كم داعبت روعي رؤاه ، فرف روعي خلف صدري
حلم كظلم الواحة الخضراء في صحراء قفر
أن أجتلي هذا الحمى وأضمه قلباً وعين
واليوم في حلم أنا؟ أم يقظة؟ أم بين بين؟!

* * *

هل تذكر؟^(١)

لقاؤنا ودربنا الأرحبُ
وشاطئ النهر
والعش في حديقة الزهر
وحارس الحديقة الطيبُ
والمقعد الأخضرُ
هل تذكر!

* * *

لقاؤنا إذ تسبق الموعدا
خطاي تستهدف عبر المدى
ركناً هناك
على رصيف الشارع الصاخب
وحيث ألقاك
سبقت مثلي ساعة الموعد

(١) وجدتها - فدوى طوقان .

هناك تغدو فرحتي فرحتين
وأقطع الشارع في لمحتين
كأن في خطوي جناحين
هناك ألقاك

في قلق الانتظار
منفعلاً مستثار
تهتف. أبطأت!
وفي خطفه
يفقدنا الرصيف روحين
مع الهوى طائرين
ونثنى نحو المدى الأبعد
قلباً إلى قلب، يداً في يد
هل تذكر؟

* * *

ونعبر الجسر ونمضي إلى
طريقنا الثاني على الشاطئ
طريقنا المنسرح الهادئ
نمشي ونمشي وملء قلوبنا
فيض هناء ماله حد
ودربنا المسحور يمتد
درب رؤوم الظل، درب طويل
كنت أرى مثله بأحلامي

قبل اللقاء
أيام كان اللقاء
وهماً جميلاً
كالمستحيل
هل تذكر؟

* * *

وتحتوينا
في قلبها المخضوضر الحاني
هناك في حديقة الزهر
عريشة ترعى أماسينا
كأنها عشّ العصافير
وحولنا من روح نيسان
شيء خفيّ الإيحاء كالسحر
يومىء عبر الظل والنور
هناك نأى
في عشنا المنعزل المعشب
عن حارس الحديقة الطيب
وتلتقي في نظرة ظمأى
للنيع عينانا
وفي انجذاب تلتف روحانا
على عناق شغف ملتصق
لا ينتهي

ونشتهي
لو حَجَرَتْنَا رَبَّةَ الحب
ونحن فوق المقعد الأخضر
قلباً إلى قلب فلا نفترق
هل تذكر؟ ...

* * *

(١) القيود الغالية

أضيق، أضيق بأغلال حبي
فأمضي وتمضي معي ثورتي
أحاول تحطيم تلك القيود
ويمضي خيالي
فيخلق لي عنك قصة غدر
لكيما أبرر عنك انفصالي

* * *

وأقصيك عني بعيداً بعيد
لعلّي أعانق حرיתי
وأقطع ما بيننا
غير أنني
أحسن إذا ما انفصلنا
كأنني

(١) ديوان «وجدتها».

لُفِظْتُ وراءَ حدودِ الوجودِ

ويثقل قلبي

وتنقص روحي

وتصبح مبتورة رازحة

وأكره أهلي

وأكره نفسي

وتعري الحياة وتمسي

قفاراً بغير جمال

بغير ظلال

ويصبح عيشي بغير مذاق

فلا طعم، لا لون، لا رائحة

ويسألني عنك قلبي

ويصرخ في ألم في احتراق:

لماذا جنت فأقصيته؟

لماذا؟

لماذا؟

تراه يعود

* * *

وحين تعود

يعود الوجود

يمد ذراعين مفتوحتين

إليّ، ويصبح قلبي خفيفاً

يغني كطير سعيد
بنى عشه في ربي الجنة
وروحى التي بُثرت يا حبيبي
تُرد بقيتها الضائعة
إليها،

وتخصب حولي الحياة
وتبدو ملونة رائعة
وأمضي وتمضي معي فرحتي
أعانق فيك عبوديتي
وأحضن أحضن تلك القيود

* * *

حبيبي بما بيننا من عهود
بضحكة عينيك
إذا أنا ضقت بأغلال حبي
وثرث عليها وثرث عليك
فلا تعطني أنت حرיתי
فقلبي قلب امرأة
من الشرق . . . يعشق حتى الفناء
ويؤمن في حبه بالقيود

* * *

(١) تشك بحبي

وكنّت مع الآخرين وحيدة
بعيداً هناك
بعيداً بتلك الأفاصي البعيدة
وزادني منك كتابٌ وصورة
تنام بصدري
وزادني منك زجاجة عطر
ينثّ بأعماق روحي عبيره
ويبعث حولي هناك
روائح دنيا هواك

* * *

وحين رجعت إليك
رجعت بكلّ تعطُّش قلبي
لأنشر ظليّ عليك

(١) وجدتها - فدوى طوقان.

لأعطيك حبي
وكانت بعينيك نظرة عتبٍ
وش!كِ وريبٍ
وقلت: نسيتِ هواي
عرفتِ هناكِ سواي
تمرُّ دهور ولا تكتبين
ولا تسألين
ألا تعرفين
جنوني وكيف يُثار
وكيف أغار
وغيرة حبي دمار ونار
ألا تعرفين؟

* * *

تشكّ بحبي؟
لأنني حجبت رسائل قلبي
كأنك تجهل أسباب صمتي
تغار؟ أحبّ أحبّ تغار
ولكن لماذا، لماذا تغار
وأنت الحياة
وتعرف أنك أنت الحياة
وانك لي منتهى مأملي
وأن اسمك الحلو ما يأتلي

يرفّ صداه
على شفتي تمتات عباده
وهمس صلاه
وفيض سعادہ
يفيض على حاضري موجهها
ويغمر مستقبلي
وها أنا بين يديك
بكل حنيني إليك
بكل تعطش قلبي
وترتاب بعدُ بحبي؟! .

* * *

نَدَمٌ (١)

كم يسألون
لمن ترى تنشدين
هذي الأغاني الناعمات الحنون
دافئة مشرقة كالضياء
مثقلة بالعطاء
ومن هواك الكبير
هذا الذي تسفحين
وتبذلين
له كنوز الشعور
من ذاتك المليئة الخير
من روحك النضيرة المزهره
لعله أطيّب إنسانٍ
لعله أجدر إنسانٍ
بكل هذا البذل، هذا السخاء

(١) وجدتها - فدوى طوقان .

* * *

وأخفض الطرف وأبقى على
صمتي المريب
غامضة لا أجيب

* * *

لكن صوتاً ساخراً في ألم
منبعثاً من قلب جرح الندم
ينصبّ في أغواري المبهمة
مرّداً في غنة مفعمة
بالهزء ، بالضحك الحزين المرير .
لعله أطيب إنسان
لعله أجدر إنسان
بكل هذا البذل هذا السخاء

* * *

واخجلي !
واخجلي لو أنهم يعلمون
ما أنت أو من تكون .

* * *

لن أبيع حبه (١)

مهداة إلى الشاعر الإيطالي
سلفاتور كوازيمودو
(ذكرى لقائنا في ستوكهلم)

أي صدفه
صدفة كالحلم حلوة
جمعتنا ههنا في هذه الأرض القصية
نحن روحان غريان هنا
ألقت ما بيننا
ربة الفن، وقد طافت بنا
فإذا الروحان غنوة
سبحت في لحن (موزارت) ودنياه الغنية

* * *

قلت: في عينيكِ عمق،

(١) ديوان «وجدتها».

أنت حلوه
 قلتها في رغبة مهموسة الجرس .
 فما كنا بخلوه
 وبعينيك نداء
 وبأعماقي نشوه
 أيُّ نشوه
 أنا أنثى فاغترف للقلب زهوه
 كلما دغدغه همسك : في عينيك عمق
 أنت حلوه
 أنا يا شاعر لي في وطني
 وطني الغالي حبيبٌ ينتظر
 إنه ابن بلادي لن أضيع
 قلبه
 إنه ابن بلادي لن أبيع
 حبه
 بكنوز الأرض
 بالأنجم زهراً
 بالقمر
 غير أنني تعترني قلبي نشوه
 حينما تطفو ظلال الحب في عينيك
 أو تومض دعوة
 أنا أنثى ، فاغترف للقلب زهوه
 كلما دغدغه همسك : في عينيك عمق
 أنت حلوه .

صلاة إلى العام الجديد^(١)

في يدينا لك أشواق جديده
في مآقينا تسابيح ، وألحان فريده
سوف نزجيها قرابين غناء في يديك
يا مطلقاً أملاً عذب الورود
يا غنياً بالأمانى والوعود
ما الذي تحمله من أجلنا؟
ماذا لديك! .

أعطينا حباً ، فبالحب كنوز الخير فينا
تتفجّر
وأغانينا ستخضر على الحب وتزهر
وستنهّل عطاءً
و ثراءً
وخصوبه

(١) أعطينا حباً.

أعطنا حباً فنبنى العالمَ المنهار فينا

من جديد

ونعيد

فرحة الخصب لدنيانا الجديدة

* * *

أعطنا أجنحة نفتح بها أفق الصعود

نطلق من كهفنا المحصور من عزلة -

جدران الحديد

أعطنا نوراً يشقُّ الظلمات المدلهمة

وعلى دفق سناه

ندفع الخطو إلى ذروة قمة

نجتني منها انتصارات الحياة .

* * *

تلك القصيدة^(١)

«ألا ليتني يا هواي الحبيب عرفتك من

قبل تلك القصيدة»

وتحضن ديوان شعري يداك
وتقرأ لي من قصيدة حبٍ
كتبتُ سخافاتهما في سواك
وما كان حبّاً، ولكنّه
حماقة شيءٍ توهمتهُ
وحين انجلي الولهْمُ أبغضتُهُ
وأبغضتُ تلك القصيدة

* * *

وأنت تظّل تؤكّد لي أن
أجمل شعري تلك القصيدة
فألعن نفسي

(١) أعطنا حبّاً.

والعن طيشي القديم
وغلطة أمس
والعن تلك القصيدة . .
وأمضي أنفأ أبياتها
وأكشف زيف انفعالاتها
والوانها الباهتات البليده
ولكن سدى .

وتظلّ تعيدُ
وتقرأ لي أنت تلك القصيدة
وفي منتهى حنقي يا حبيبي
وفورة غيظي أهبُّ إليك
وأسعى لديوان شعري
فأنزعه من يديك
أهمّ بتمزيق تلك القصيدة
أودّ لو أن القصيدة تمسي
هباءً ذرته أكفّ الرياح
أودّ لو أن القصيدة شيء
يموت ويُطمَرُ في قاع رمس
وتضحك من حنقي يا حبيبي
وثورة نفسي
وتمضي بمكرٍ لذيذٍ بريءٍ
تؤكد لي أن أجمل شعري
والطف شعري تلك القصيدة

وترنو إليّ، وأرنو إليك
وفي ندمي، ندمي وانخدالي
أروح أغمغم بين يديك :
ألا ليتني يا هواي الحبيب
عرفتك من قبل تلك القصيدة.

* * *

ذاك المساء (١)

ذاك المساء
والشارع الممدود تسحب فوقه شمسٌ -
الخریف
حُزماً بقايا من ضياء
والصمتُ يحتضن المكان سوى رفيف
أشجاره، وخطى لبعض العابرين
ساروا هناك على الرصيف
ساروا بلا هدفٍ بلا قصدٍ -
حيارى تائهين
لم أدر فيم وقفتُ؛ فيم تسمرتُ
قدمي على ذاك الرصيف
لم أدرِ ماذا شدّني عند الجدار
هل كنتُ أبحث في ضياعي عن وجودي؟
هل كنتُ في قلق الحياة

(١) أعطنا حباً.

ذاك المساء

أسعى بأعماقي إلى شيء بعيدٍ
أسعى إليه ، أودّ لو ألقاهُ لكن -

لا أراه؟

كان الفراغ يحطُّ في عيني ثِقَلَهُ
وتفاهة الأشياء تُلقني

ظُلّها الخاوي بنفسي

وتلفُ أيامي البطيئات المملّة

فحكاية الحب التي أنهيتها

شيعتها

ودفنتها

من أمس أمس

ها نحن قد مرت علينا

عشرون يوماً فارغاً مرت علينا

عشرون يوماً ما التقينا

ووقفت

«ماذا لو يمر الآن بي؟

«أنا كيف ألقاه لو التقت العيون؟

«لا ، لن أمد يدي إليه لن -

يحركني فرح!

«ذاك الجنون

«ما عاد مثل الأمس يُبدعُ لي الفرح

«سارد عن عينيه وجهي

«لو يمر الآن بي
«سأظل أرنو للفراغ
«كأنه ما مرّ بي
«لا، لن أبالي لو يمرُّ
وبقيت في ظل الجدار
لم أدرِ فيم بقيت في ظل الجدار
قدمي مصفّدة وطرقي تائه لا يستقر

* * *

هو!! وانتفضتُ، وحاصرت عيناى
منعطف الطريق
وقطعتَ مفترق الدروبِ ورحت تدنو
من مكاني
هي خطوةٌ أو خطوتانِ
ووقفتَ في ظل الجدار معي هناك على -
الرصيف
لم أدرِ ما قلتَ، كيف تعانقت منا اليدان
ببساطةٍ، بسهولةٍ، وتسمرت
عيناى في الوجه الذي أذمتُهُ
في واقعي المحتوم، في قدرى الذي قاومتُهُ
عشرين يوماً ضائعاً قاومتُهُ
ورفضتُهُ...

* * *

لقاء كل ليلة^(١)

أحبابنا خلف الحياة والزمان
الليل ميعاد لنا
كل مساء هاهنا بضمنا لقاء
لكن لقاءنا حزين
لكن لقاءنا مهين
تظلّ فيه ضحكة القضاء حولنا
تهدر في شماتة وفي جنون
تغوص في أعماقنا كخنجر
يغوص غائراً إلى القرار
بلا مبالاة يغوص غائراً
إلى القرار

* * *

أحبابنا يا موحشين بالغياب

(١) أمام الباب المغلق.

أيامنا
أحبابنا، والباب بيننا أصمّ
بالموت موصل وبالعدم
نوازع الأشواق كل ليلة تردّدكم
إلى عيوننا
أحبابنا
بالحبّ نلقاكم وبالألم
والجرح ليس يخطيء الميعاد -
كل ليلة هنا
يضمننا لقاء
نحبّه، وإن يكن حزين
نحبّه، وإن يكن مهين

* * *

مكابرة (١)

أهذا أنت؟ من أيّ الكهوف -
بزغتَ يا وجهاً طمرناه
والقينا في الغيب، في أعماق
ماضينا

ورحنا نشرب النسيان في صمتٍ
وفي صمتٍ نعبُّ مرارة التسليم
والإذعان للأقدار يوم هوى بنا البنيان واندحرت أمانينا

* * *

أما كنّا تشاغلنا
عن التذكار والأشواق!
وفوق كآبة الأعماق أسدلنا
ستار الرفض والكبر
وقلنا للعيون الطائشات السود -

(١) أمام الباب المغلق.

قلنا: يا أعزَّ عيون
صحبونا، نحن بعد اليوم لن نسكر
فردِّي الكأس عتًا يا
أعزَّ عيون.
ورحنا نخلق الإحساس نلجمه
بهذا القلب، نلجم رعدة -
الإحساس والشعر
وكانت أجمل الأشعار ما زالت
بهذا القلب ترعرع فيه لكنا
وأناها وقلنا لن
نريق سدى أغانيها
ولن نسقي غرور الزنبق النشوان -
مهما رفَّ، لن نسقيه -
حتى غابة العطر
خفقنا نفحها فينا
وفوق كآبة الأعماق أسدلنا
ستار الرقص والكبر

* * *

شغلنا عنك وانفتحت
لنا الآفاق تدعونا
تُجدُّ لنا منى أخرى
وتزرع حولنا الأفياء تمطرنا

بألف رجاء
وقلنا: يا خلاص الروح
أخيراً قد تعافينا
فلا تحنان، لا أشواق، لا ذكرى
تناديننا . .

* * *

فمن أيّ الكهوف بزغت -
يا وجهاً عبدناه
زماناً، ثم في أعماق ماضينا طمرناه
أما كنّا ذهلنا عنك حتى قيل -
لم نعرف هواك؟ فأبي ينبوع
من التحنان والذكرى
من التهيام والذكرى
تفجر بغتة فينا

* * *

نكابر، ندّعي أنا
تعافينا .
نكابر، يا ضلال الكبر، يأبى أن
يقرّ الكبر أنك في قرارتنا
نداء قاهر كالموت . كالأقدار -
يأبى أن
يقرّ الكبر أنك لهفة أبدية -
فينا

(١) إلى صديق غريب

صديقي الغريب
لو أنَّ طريقِي إليك كأمس
لو أن الأفاعي الهوالك لَيْسَتْ
تعربد في كل دربٍ
وتحفر قبراً لأهلي وشعبي
وتزرع موتاً وناز
لو أن الهزيمة لا تمطر الآن
أرضَ بلادي
حجارةَ خِزْي وعار
ولو أنَّ قلبي الذي تعرفُ
كما كان بالأمس لا ترعفُ
دماه على خنجر الانكسار
ولو أنني يا صديقي كأمسي
أدُلُّ بقومي وداري وعزّي

(١) الليل والفرسان .

لكنْتُ إلى جنبك الآن عند -
شواطئ حبّك أُرسي
سفينة عمري
لكنّا كفرخي حمام ..

* * *

المصادر والمراجع

- ١ - ديوان فدوى طوقان - دار العودة - بيروت ١٩٨٨ - ٦٤٠ صفحة .
- ٢ - الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٧٥
المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - طبعة أولى ١٩٧٩ ،
د. صالح أبو اصبع .
- ٣ - صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر - رجاء النقاش -
المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت طبعة أولى ١٩٧٦ .
- ٤ - دراسات تحليلية في الشعر العربي المعاصر - محي الدين صبحي
منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٧٢ .
- ٥ - دراسات في حركية الفكر الأدبي . د. وجيه فانوس دار الفكر
اللبناني ط ١ ١٩٩١ .
- ٦ - الالتزام في الشعر العربي - د. أحمد أبو حاقه - دار العلم
للملايين - ط ١ ١٩٧٩ .

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|------------------------------|--------|
| الاهداء | ٣ |
| حياة الشاعرة | ٥ |
| الحب عند فدوى طوقان | ١١ |
| غَبّ النوى | ١٥ |
| نسيان | ٤٤ |
| القصيدة الأولى | ٤٦ |
| لا مفر | ٤٨ |
| الكلمة والتجربة | ٤٩ |
| بعد عشرين عاماً | ٥٢ |
| الموت والرثاء عند فدوى طوقان | ٥٩ |
| الالتزام | ٧٣ |
| خصائص شعر فدوى طوقان | ٨٧ |
| الموسيقى | ٩٢ |
| التضمين النثري | ٩٦ |
| مختارات | ٩٩ |

| | |
|-----|-----------------------|
| ٩٩ | أشواق حائرة |
| ١٠٢ | في درب العمر |
| ١٠٣ | الصدى الباكي |
| ١٠٥ | في محراب الأشواق |
| ١٠٨ | في مصر |
| ١١١ | هل تذكر |
| ١١٥ | القيود الغالية |
| ١١٨ | تشك بحبي |
| ١٢١ | ندم |
| ١٢٣ | لن أبيع حبه |
| ١٢٥ | صلاة إلى العام الجديد |
| ١٢٧ | تلك القصيدة |
| ١٣٠ | ذاك المساء |
| ١٣٣ | لقاء كل ليلة |
| ١٣٥ | مكابرة |
| ١٣٨ | إلى صديق غريب |
| ١٤١ | المصادر والمراجع |
| ١٤٣ | الفهرس |